أبو الحسن علي الحسني الندوي

المسلمون

تجاه الحضارة الغربية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

جدة : ميدان الجامعة ص.ب ٨٠٥٢ جدة ٢١٤٨٢ ت الإدارة ٦٨٩١٤١٧
المكتبة ٦٨٩٤٤٦١
الخبر : ش الأمير نايف ص ب ٢٣٢١ الخبر ٣١٩٥٢ ت ٨٩٤١١٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

استخدم الغرب لتسخير العالم الاسلامي ، وابقاء سيطرته عليه ، وسائل لا يعرف لها مثيل في تاريخ استيلاء أمة على أمة ، فقد اشتركت في هذا الغزو عناصر عديدة ، من العاطفة والقوة ، والعلم ، وتفكير علماء الغرب ومفكريه ، ومخططيه ، والدهاء والمكر ، أو مانسميه بالتدجيل .

فاقترن الغزو العسكري بالغزو الفكري والسياسي ، وساعد الغرب في تحقيق هذه الغاية تدهور البلاد الاسلامية في عصر الانحطاط وعدم استقامتها في الاحتفاظ بروح الدعوة والجهاد التي كانت تدفعه ، والجمود والتحجر في العلم والفكر والاجتماع والوهن في نظام الدفاع ، فسرت فيها نفسية الانهزامية ومركب النقص والتردد ، فلم يتمكن العقل السليم من الوقوف أمام الغزو الأوروبي العلمي والعسكري موقف صرامة وتحليل بحرية القبول والرفض ، وصلاحية التميز ، كما وقف أمام الحضارات الغازية في عهده الزاهر ، خلال احتكاكه بالحضارات الرومية والفارسية والهندية .

كانت الروح الصليبية ، وتصميم الغرب للاستيلاء على الثروة التي كانت تحرك العالم الاسلامي فكريا ومعنويا ، وتدفعه بطريق يهدد الغرب ، والتي كانت مصدر قلق واضطراب له طيلة قرون ، العنصر الرئيسي في موقف الغرب إلى العالم الاسلامي وركيزته ، وقد خطّط تخطيطا دقيقا لابعاد هذا العالم عن منطلقه ، وصرفه عن استئناف دوره القيادي ، واستخدم فيه ذكاءه وطاقاته العلمية والسياسية ، بتزامل وثيق مع اليهودية ووكالاتها ، فلم يكن العالم الاسلامي يواجه عدوا واحدا ، وإنما كان يواجه أعداء متحمسين يتمثلون في الروح الصليبية واليهودية الحاقدة للاسلام التي كانت تكيد ضد الاسلام منذ قرون ، وتتحيّن الفرص والمادية اليونانية المتمثلة في العلوم والبحوث الجديدة ، ومطامع الاستعمار العسكري في الدول الغربية ، إن الاقتباس من العلوم والانتفاع من الوسائل الغربية والاستفادة من المصنوعات ليست بعملية غريبة في تاريخ الأمم ، ولا تحرّمها شريعة ولا يشكل ذلك مشكلة أو خطرا ، وإنما تعيش الأمم بالتبادل والتزامل وروح الأخذ والعطاء ولكن الخضوع لفكر ولثقافة وعقيدة ، والانسلاخ من الخصائص الاجتماعية والذاتية ، يؤدي الى ذوبان الشخصية ، وانهيار الكيان الاجتماعي ، ويبعد الأمم عن التفكير في استعادة مجدها وذاتيتها ، لقد حسبت القيادة الفكرية للعالم الاسلامي في العصور

المتأخرة نتيجة لدعاية علماء الغرب ، بأن المسألة هى مسألة العلم واتخاذ وسائل التقدم وأنماط الحضارة ، فدعت الى تقليد الغرب ، وكان الغرب هو الذي تبنى هذه الفكرة بدهاء ومكر ، وأعد لها الذهن ، وأقنع العقول الجديدة ، إنها مسألة التقدم الحضاري والعلمي ، ولكن التجربة مع الاستعمار الغربي ، والتجربة مع علماء الغرب ، وفلسفاتهم وسلوكهم مع العمل ، والتاريخ ، وتحيزهم بل عصبيتهم الصليبية ، والتجربة مع الحضارة الغربية وسلوكها مع الأمم الاسلامية ، ودراسة الحركات والأفكار التي غزت أوروبا الشرق الاسلامي بها ، تشير بجلاء إلى أنها تتكون من العناصر التالية :

العنصر الأول :

الوعي والشعور في الغرب بخطر الاسلام ، وتهديده وعزمه على وقف سيره لصيانة أوروبا من غزو الاسلام ، وهى النفسية التي وجدتها الكنيسية الأوروبية وسخرت لها وسائل الاعلام والتعليم ، وشاركت اليهودية في هذه المشاعر وقامت بدورها .

العنصر الثاني :

التقدم العلمي والصناعي لأوروبا ، والتقدم

الحضاري نتيجة للعلم والصناعة الذي يقوم على أساس الانتفاع المادي .

العنصر الثالث :

مطامع الاستعمار ، والشعور بتفوق الجنس الأبيض ، وهى العقلية التي ورثتها أوروبا المعاصرة من التاريخ اليوناني ، ولم تتغير بتغير الظروف ، ولا التقدم الحضاري فيمارس الغرب بمنتهى القسوة والصرامة لترسيخ استيلائه على الأمم المستضعفة والاجتهاد لتبقى هذه الأمم تابعة مستضعفة .

العنصر الرابع :

استغلال العلم للأغراض السياسية وساهم الاستشراق فيه كوكالة للكنيسة والاستعمار الأوروبي ، وقام بنشر فلسفة تفوّق الغرب ، وبث الانهزامية في الأمم التابعة للغرب وقلب موازين البحث والتحقيق .

في ضوء هذه التجربة ، يجب ان يكون موقف العالم الاسلامي إزاء الغرب قائما على الأسس الآتية ، لمواجهة الغزو المتعدد الجوانب .

اعادة الوعي الاسلامي ، وإحياء روح الايمان ، والثقة برسالتنا وتاريخنا وقيمنا ، ومعرفة مكائد عدونا ،

والعزم على استعادة المجد واعداد النفوس لها ، وإعداد أساس علمي متجدد من غير خضوع للغرب بحيث ان نقتبس من العلوم على مقياسنا وظروفنا الخاصة ، وتنظيم حياتنا الواقعية على أساس الايمان والعلم الحديث ، وتكوين قوة دفاعية مستقلة بذاتها ، قوامها الايمان وروح الجهاد ، ومادتها الوسائل الحديثة ، والخبرة المعاصرة لتطهر المجتمع الاسلامي من المشككين والمتشككين ، ومحاربة نفسية الانهزامية والتبعية بتخطيط وتوازن بين الدين والحياة المعاصرة .

يجد القاريء في الصفحات الآتية تفصيلا وعرضا لهذا الموقف ، وهو عبارة عن مقتبسات من كتبي وخطبي التي عالجت فيها مشكلة الحضارة الغربية ، وحللت عناصرها ، وبحثت صلاحية هذه الأمة لمواجهتها ، وهى تشكل موقفا معتدلا نابعا عن قلب مؤمن واع بالخطر الحقيقي ، وفكر باحث محلل ، وتجربة ودراية للواقع ، بأسلوب يجمع بين سمة حديث القلب والفكر معا ، والعاطفة والعقل ، عسى الله أن ينفع به العاملين في مجال الدعوة والعمل الاسلامي ، وهو الموفق وهو يهدي السبيل .

ابو الحسن على الحسني الندوي

موقفنا من الحضارة الغربية
اقتباس ، لا تقليد ولا اقتداء

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين .

إن قضية الحضارات ومواقف أمة أو مجتمع منها ، قضية مهمة حساسة حاسمة ، مقررة لمصيرها ومحددة لمركزها بين الأمم والشعوب والمجتمعات البشرية .

ليست قضية الاقتباس من حضارة سابقة أو معاصرة والاستفادة منها ، قضية طريفة ، ولا قضية غير طبيعية ، فهناك حضارات في كل زمان تقوم وتزدهر وتتوسع وتترقى ، تسنح لأمم وشعوب فرصة لتوجيه المجتمع وتنظيم الحياة وتذليل عقباتها وترفيه معيشتها ، ثم تأتي أمم ومجتمعات فتستفيد من هذه التجارب ، وتقتبس من هذه المنجزات والمعطيات للعلم البشري ، وهذه قصة الروم ، وقصة فارس ، وقصة العرب المسلمين ، فليس في ذلك محظور شرعي وشيء غير منطقي ، وقد كان هذا موقف الجيل العربي الاسلامي الذي فتح المستعمرات الرومية والايرانية ، ومراكز حضاراتها وثقافتها ، وكان عليه ان يحكم هذه الدول الكبيرة والبلاد الواسعة التي

بلغت فيها المدنية شأوا بعيدا ، وينظم الحياة والادارة فيها ، انه كان موقف اقتباس حر كريم واختيار رجل قوي معتز بدينه وشخصيته ، معتد برسالته ودينه الذي كان يحمل حضارة خاصة ونمطا للحياة متميزا ، عملا بالوصية النبوية الكريمة : «**الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها**» ، وتطبيقا للحكمة العربية : «خذ ما صفا ودع ما كدر» .

ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي لقب بالفاروق ، والذي كان من أشد الناس غيرة على الدين وأكثرهم احتفاظا بروحه وطابعه ، قد بدأ بالتقويم الاسلامي الذي يقوم على الحساب الهلالي . ويبتديء من الهجرة ، لأنه كان لابد من تقويم للمسلمين وقد كان لكل دولة وبلاد ودين تقويم ، واتخذ بيت المال ولم يكن قبله[1] ، وهو أول من اتخذ الديوان ، قال ابو هلال العسكري في كتاب الأوائل قال الفيرزان (الايراني) : «ان العجم يدونون ديوانا يكتبون فيه مالواحد واحد ، وأشار عليه بالديوان فعمله»[2] ، وهو أول من مسح السواد وفارس ، وقد سأل الدهاقين وهم رؤساء الاقاليم في فارس عما كانت ملوك فارس تعمله في جباية الخراج ،

---

(١) كتاب الأوائل لأبي الهلال العسكري ، ص / ١٢٣ .
(٢) ايضا ص / ١٢٤ .

فأخبروه بطريقهم فاستفاد منها في وضع الخراج وجباية أهل الذمة[1] ، ووضع معاوية البريد في زمنه ، وأحكم عبدالملك أمره ، وكان طريقا متبعا عند العجم[2] ، وكان عبدالملك اول من ضرب الدنانير والدراهم في الاسلام وكانوا يتعاملون بالعملة الرومية والفارسية ووضع الاوزان[3] ، واتخذ خالد بن برمك الدفاتر للحساب في الديوان[4] ، ولم يستنكر شيئا من ذلك أحد علماء المسلمين وفقهائهم وعبادهم ، الحريصين على اتباع السلف ، الكارهين اتباع غير المسلمين .

ولكن هذا الاقتباس الكريم يحتاج الى عناصر والى دعائم وركائز ، وبدونها يتحول هذا الاقتباس سريعا الى موقف التقليد الخانع والتطبيق الذي سنتكلم عنه .

من أهم هذه العناصر او الركائز الاعتزاز بالدين والرسالة التي يحملها هذا الفرد المقتبس او المجتمع المقتبس ، والاعتداد بالشخصية والثقة بها ، وأن يكون هذا المقتبس فخورا بها عاضا عليها بالنواجذ ، لايعدل برسالته رسالة ولا بشخصيته شخصية ، واذا رجعنا الى

---

(١) أيضا ، ص /٢٦ - ١٢٥ .

(٢) أيضا ، ص / ١٥١ ، قبل أول من رتب ودابه الملك دارا بن بهمن من ملوك الفرس ، والصحيح أن البريد كان معروفا عند الصينيين منذ ثلاثة آلاف عام ، ثم عرفه الأشوريون والبابليون والرومانيون (دائرة المعارف القرن العشر لفريد وجدي ، ج/٢ ،ص /١١١) .

(٣) أيضا ، ص / ٢٠٥ . (٤) أيضا ص / ٢٧٣ .

تاريخ الاسلام الأول ، والى تاريخ الفتوح الاسلامية واحتكاك العرب المسلمين بالشعوب المعاصرة والحضارات المجاورة ، رأينا بوضوح ان الجيل العربي المسلم كان معتزا بدينه ، معتدا بشخصيته الاسلامية العربية ، معتزا بكرامته ، بعيدا كل البعد عما يسميه علماء النفس اليوم بمركب النقص (INFERIORITY COMPLEX) والانسان الدارس للتاريخ يقف خاشعا مجلّا مقدرا امام هذا الاعتزاز الذي كان يملأ الجوانح ويسيطر على المشاعر ، بهذا الاعتزاز الايماني وبهذا الاعتداد النفسي ، واجه العرب المسلمون الحضارة الإيرانية والحضارة الرومية في وقت واحد ، واستطاعوا ان يتغلبوا عليهما في سهولة وسرعة ، ان الجيوش التي كان يقودها الروم والفرس ، كانت اقل تأثيرا على نفوس هؤلاء العرب ، إنهم قد نشأوا في الحرب ، ورضعوا بلبانها ، انها كانت اقل تأثيرا من هجمات الحضارة ، او من جيوش العلوم والآداب ، وجيوش الشعر واللغة ، ومن جيوش المظاهر المدنية الخلابة والحياة الفاتنة ، انني لا استغرب انهم عبروا نهر دجلة يوم فتح المدائن في قيادة سعد بن أبي وقاص ، ولم تبتل ثيابهم ، انني استغرب انهم عبروا نهري الحضارتين وبحر الثروة والترف من غير ان تمس بشخصيتهم وعقيدتهم ، عبروا نهر الحضارات ، نهر التحديات ولم يتغيروا .

هذا هو الاقتباس الكريم ، ان الشريعة الاسلامية السمحة لاتمنعنا عن الاقتباس من الحضارات ، من مرافق الحياة ، مما نحتاج اليه من علوم وحكم وآداب ولكنها قضية الاقتباس لا قضية التقليد والتطبيق ، انهم اقتبسوا هذه الاشياء ، كما انها كانت ملكا لهم ، وتصرفوا فيها كما شاءوا ، ولم يتركوها تتصرف فيهم كما تشاء انهم اخضعوها لواقع حياتهم وصبغوها بصبغتهم ، وقد اجاد امير البيان الأمير شكيب ارسلان حين قال : «من استرق شيئا وقد استرقّه ، فقد استحقه» انه لم يكن استراقا انما كان اقتباسا ، ان الشخصية لها أكبر قيمة بعد العقيدة ، هذا اذا كانت شخصية فرد واحد ، فكيف بشخصية أمة ، انها شخصية تجمع آلافا من الشخصيات وقيمتها تعدو هؤلاء الملايين ، من ابناء الأمة المندمجين في شخصيتها فمن أساء الى شخصيتها أساء الى الأمة بأسرها ، والى الرسالة بكاملها .

ان الحضارة الغربية ليست حضارة اقليمية محلية ، انما هى حضارة قد تعاونت فيها جهود الفضلاء ، وأصحاب الاختصاص ، وهو حق مشاع ، وثروة انسانية عامة ، نقتبس منها العلوم التطبيقية والتجريبية ، وما يزيدنا قوة على قوة ولكن يجب ان نعامل هذه الحضارة كمواد خامة نصنع منها مايطابق قامتنا وقيمتنا لا كأشياء قد ختمت عليها بخاتم الكمال فلا نزيد عليه ولا ننقص

منها ، ولا نحدث فيه تعديلا ، ان لكل امة قامة وقيمة ، فليكن لباسنا مطابقا لقامتنا وقيمتنا ، نأخذ الحضارة الغربية فنصهرها صهرا جديدا في بوتقتنا ، ونبعد عنها عناصر المادية وعناصر اللادينية ، وعناصر الشهوانية ، وعناصر الانانية ، ونخضعها لأغراضنا ولمدنياتنا ، ولرسالتنا ، وهذا هو الاقتباس الكريم ، وهذا هو الذي فعله الصحابة رضي الله عنهم في القليل الذى اقتبسوه من الحضارة الرومية والحضارة الايرانية .

وهناك نوع آخر من موقف الأمم والحكومات والمجتمعات ، من حضارات سابقة أو معاصرة ، وهو موقف التقليد الخانع ، والتطبيق الذي لا اختيار فيه ولا ابتكار ، وهو الذي اشار اليه نابغة العرب وفيلسوف المؤرخين العلامة ابن خلدون وعقد له فصلا خاصا في مقدمته العظيمة ، فقال : «فصل في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ، ونحلته ، وسائر أحواله وعوائده» ، وعلل ذلك تعليلا حكيما ، يدل على ألمعيته وبعد نظره ، وسعة دراسته لتاريخ الأمم والحضارات ، فقال :

«والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت اليه ، اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تخالط به من ان انقيادها ليس لقلب طبيعي ، انما هو لكمال الغالب ، فاذا خالطت بذلك

واتصل بها ، حصل اعتقاد فانتحلت جميع مذاهب الغالب ، وتشبهت به وذلك هو الاقتداء[1]» .

وليست كلمة المغلوب مقصورة على المغلوب السياسي او المحكوم أو المستعمر فقط ، فقد يكون شعب حاكم في بلاده يملك قوة حربية ، وثروات هائلة ، مغلوبا على أمره مستعبدا في عقليته وشخصيته ، يعتقد العصمة والقدس والعبقرية في حضارة أجنبية ، ويتمجد ويشعر بالسمو والظرف ، والأناقة أو الرقي والتقدم في تقليد مظاهر هذه الحضارة وان كانت مظاهر خارجية قشورية ، فيكون شأنه شأن المغلوب سياسيا والمفتوح جسميا ، وينطبق عليه قول العلامة ابن خلدون انطباقا كليا ، يزيد ابن خلدون فيقول :

«ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه ، في اتخاذها وأشكالها ، بل وفي سائر أحواله ، وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين لهم دائما ، ما ذلك الا لاعتقادهم الكمال فيهم[2]» .

---

(١) مقدمةابن خلدون ، ص / ١٠٤

(٢) المقدمة ، ص / ١٠٤ .

هذا نوع من مواجهة الحضارة ، ينشأ من مركب النقص الذي يصاب به انسان ، ولكن اذا اصيبت أمة وهى في أوج حضارتها وثروتها ، فهنالك المصيبة ، كان من الممكن ان نأخذ من الغرب هذه الاشياء التي اقتبسناها فنصبغها بصبغة اسلامية عربية ، ونتصرف في ما نقتبسه من الغرب بذكائنا وبذوقنا الرفيع ، وثقتنا بصلاحية هذا الدين وبما نحمله من حضارة ونطبقه بطابعنا الاسلامي الشرقي .

ان قضية الحضارة قضية أصيلة مهمة ، ليست قضية حياتية طبيعية ، ان الحضارة لها تأثير عميق في النفس الانسانية ، اذا جردت امة من حضارتها الأصيلة وفرضت عليها حضارة أجنبية فهى الى الزوال ، انها في طريق الانسلاخ من شخصيتها ، لأن العبادات لها وقت محدود ومكان محدود ، والحضارة حيزها أوسع ، فاذا عشنا في المسجد متعبدين ، وعشنا خارج المسجد بالحضارة الغربية ، فمعنى ذلك ان نصيب الدين في حياتنا ضئيل .

ان الأوروبيين لما عرفوا ان المسلمين عندهم حساسية زائدة ، بما يتصل بالدين استخدموا استراتيجية جديدة ، فعدلوا مسهم في دينهم وعقيدتهم الى التأثير في حضارتهم ، قالوا لا نثير هذا الأسد النائم ، انما ينتبه هذا الليث ويثور اذا مس دينه بإهانة ، فاذا قبلوا هذه الحضارة

فانهم ينتقلون بالتدرج الى تفكير مثل تفكيرنا والى مُثُل مثل مُثلنا ، والى قيم مثل قيمنا ، وقد نجحوا في ذلك نجاحا لا يستهان به ، بل ان الأوروبيين ماكانوا يتصورون انهم ينجحون بهذه السهولة والسرعة ، ان هذا النجاح السريع المطرد لم يكن في حسبانهم ، وقد كان ذلك مفاجأة لهم ، ومثل ذلك مثل صياد أعد عدته وأخذ ذخيرته لصيد الأسد ، وقد كان في جعبته بعض الرصاص لصيد العصافير ، فأخذ رصاصته ورمى بها الأسد فأصابت المقتل وأصمى رميته ، فهو في حيرة من أمره وأمر الأسد ، يندم على انه حمل معه مايقتل به الأسد ، وهذا مثل الأوروبيين ومثل شعوبنا الشرقية ، وحكوماتنا الاسلامية .

ان مركزنا ليس مركز الاطفال ، ولا مركز المقلدين ، ان مركزنا مركز المجتهدين ، مركز الأئمة والقادة ، يجب أن نكون روادا فنأخذ ـ مالا بد ـ من الحضارة الغربية ولكن نصبغها بالصبغة الاسلامية الجميلة ، الفاضلة الكريمةالمشرفة ، ليس هناك شيء يحول بيننا وبين هذه العملية البنائية الاستقلالية التي يتجلى فيها الذكاء ويتجلى فيها الاعتزاز بالدين وبالرسالة التي نحملها ، والاعتداد بالشخصية الجماعية التي نتجمل بها .

ان الانسان يحن الى ان يرى هذه الحضارة الاسلامية ويعيشها ولكن لا يجدها متميزة ملموسة

واضحة في بلد اسلامي الاّ بقايا من الحضارة الاسلامية بقيت كآثار تاريخية .

ولنكون في موقف الاقتباس عن علم ومعرفة وتمييز بين مايلائم ومالا يلائم شخصيتنا وعقيدتنا منهج حياة يجب ان نقوم بتحليل عناصر الحضارة الغربية وخصائصها ومساوئها ومحاسنها .

عناصر الحضارة المعاصرة وتركيبها
مسيحية محرفة ، يهودية ثائرة ،
وعقلية يونانية مادية

كانت أبرز سمات الحضارة المادية في العهد الأخير التدجيل ، والتلبيس على الناس ، وتسمية الاشياء بغير اسمائها ، وتمويه الحقائق ، واطلاق الأسماء البراقة الخلابة للعقول على غير مسمياتها[1] ، وبكثرة الاختلاف بين الظاهر والباطن والأول والآخر ، والنظريات العلمية ، والتجارب العملية ، وهذا شأن الشعارات والفلسفات ، التي حلت محل الاديان ، وسحرت النفوس والعقول ، والكلمات التي أحاطت بها هالة التقديس والتمجيد ، وحل حبها واحترامها في قراراة النفوس وحبات القلوب ، وأصبح الشك في قدسها ، أو النقاش في كرامتها ومكانتها علامة للرجعية وانكاراً للبداهة ، والمشهود المحسوس ، وقد التبس الامر بذلك على كبار الأذكياء ، ونوابغ العلماء فأصبحوا يتغنون بهذه الشعارات والفلسفات ، ويدعون اليها في ايمان وحماس من غير تمحيص لنية أصحابها

---

(١) يلاحظ ذلك جليا من تعبيرات كالجمهورية ، الاشتراكية ، الحرية ، الأمن ، الانسانية ، حقوق الانسان ، والمساواة ، وغيرها من المصطلحات والفلسفات التي تستعمل في غير معانيها التي وضعت لها .

واخلاصهم او شجاعة في تحديد نجاحها واخفاقها في مجال العمل والتطبيق ، والمقارنة الصحيحة المحايدة ، بين ماكسبته الانسانية والأمم الضعيفة ، وبين ماخسرته من سلطان هذه الشعارات وتحت رايتها من السعادة الحقيقية ، والحقوق الفطرية ، وهذا كله من قوة التدجيل وسحره ، الذي يفوق فيه «الدجال الأكبر» على جميع الدجالين والمدلسين والمموهين الذين عرفهم التاريخ البشري ، وقد سرت هذه الروح «الدجلية المدلسة» في هذه الحضارة ، لسيرها على خط معارض لخط النبوءة ، الايمان بالآخرة والايمان بالغيب ، والايمان بفاطر الكون ، وقدرته المطلقة واحترام شريعته وتعاليمه ، وللاعتماد الزائد على الحواس الظاهرة ، والشغف الزائد ، بما يعود على الانسان باللذة البدنية والمنفعة العاجلة ، والغلبة الظاهرة ، وهى النقطة التي تدور حولها سورة الكهف ، ومما جاء فيها من قصص وعبر .

دور المسيحية واليهودية ، المتشابه في توجيه المدنية ومصير الانسانية :

وقد كان مع الأسف للمسيحية المحرفة ، وهى التي قادت الحضارة في أوروبا بعد القرون الوسطى في العالم المتمدن ، ولليهودية الثائرة الموتورة دور متشابه ـ رغم

الخلاف الجذري في العقيدة ـ في توجيه المدنية الى المادية الرعناء المجردة من الروح وتعاليم الأنبياء ، والتأثير في مصير الانسانية على حد سواء ، فقد بدأت الشعوب المسيحية التي تحررت من رق الكنيسة والبابوات ، وضعفت صلتها ـ اذا لم نقل تقطعت كليا ـ بالمسيحية السمحة المؤسسة على التوحيد الخالص ، فاتجهت اتجاها ماديا عنيفا ، أصبح يهدد العالم ، ومصير الانسانية بالاكتشافات العلمية الحديثة ، والمخترعات المدمرة المبيدة ، وفقد التوازن بين العلم والعاطفة والعقل والضمير والأخلاق .

وقد ساهم اليهود في العهد الأخير ـ بأسباب يعود بعضها الى خصائص النسل والدم ، وبعضها الى التعليم والتربية ، وبعضها الى الغايات السياسية ، والمشاريع القومية ـ بأكبر قسط في العلم والفن والاكتشاف والاختراع وفي السيطرة على هذه الحضارة ، وتملك زمامها ، وتوجيهها في صالحهم ، والتأثير في الأدب والتربية ، والسياسة والفلسفة ، والتجارة ، والصحافة ووسائل التوعية والاعلام ، حتى أصبحوا العنصر الفعال الرئيسي في قيادة الحضارة الغربية التي ظهرت في بيئة مسيحية ، وفي حضانة شعوب آمنت بالمسيح ، واحتضنت اسمه هذا العهد الطويل ، ويبدو للناظر المتعمق في الحوادث الأخيرة والمطلع على مدى نفوذ اليهودية العالمية في المجتمع

الغربي ، إن هذه الحضارة وماتحتوي عليه من علم وفن ستبلغ نهايتها السلبية ، وتصل الى ذروتها في قوة التدمير والهدم والافساد ، والتلبيس والتدجيل ، على ايدي اليهود الذين مكن لهم الغرب المسيحي ـ بغفلة منه وجهل بمراميهم البعيدة وطبيعتهم الحاقدة ـ كل تمكين ، وأتاح لهم كل فرصة لم يكونوا يحلمون بها قبل قرون ، وكانت في ذلك أكبر محنة للانسانية وأكبر خطر على العالم ، فضلا عن العرب ، الذين يكتوون بنارهم فضلا عن المنطقة المحدودة التي يجري فيها هذا الصراع الحاسم .

وقد كانت السمة البارزة الثانية للحضارة التي نشأت في حضانة المسيحيين ، وشبت وترعرعت تحت رعايتهم ، الشغف الزائد بهذه الحياة المحدودة الفانية والحرص على تمديدها وتزيينها ، و المبالغة في اجلالها وتفخيم شأنها ، والاتجاه الى نفى كل ماوراءها من مُثُل وقيم ، وخيرات ونِعَم ، والاقتصار على التنافس في السيطرة على اسبابها وطاقاتها وذخائرها ، وهى النقطة التي تلتقي عليها اليهودية معها ـ رغم مابينها من عداء وتناقض ـ فقد تجردت التوراة عن ذكر عالم الآخرة والحياة الآخرة ، والحث على الاستعداد لها ، وصرف القوى والمواهب الى نيل السعادة فيها ، واشارة الحنين والاشواق الى نعمائها وطيباتها ، وللاشارة الى قصر هذه الحياة الدنيا

وتفاهتها ، وذم حب العلو ، والافساد فيها ، والتزهيد في زخارفها ومتاعها القليل ، وحطامها الزائل ، تجردت عن كل هذه المعاني تجردا يثير العجب ، ولا يغفل عن الكتب السماوية المنزلة من الله ، وروحها وطبيعتها ، فلا عجب اذا كان تاريخ اليهود تاريخ التنافس على المادة ، والنهامة للثروة ، والكفاح للسيادة (السلالية) والكبرياء القومي ، وقد تجلى ذلك بوضوح من أدب وشعر ، وقصص وملاحم ، ونبوات وكهانات ، أو أثر عنهم من بطولات ومغامرات ، وحروب وثورات ، أو عرف عنهم من ابداعات واختراعات أو عزى اليهم من أفكار وفلسفات ، فان أندر شيء في كل ذلك ، هو الرقة والتواضع ، وهضم النفس وانكار الذات ، والاستهانة بالحياة الدنيا ، والشوق الى لقاء الله ، والحنين الى الآخرة ، والرحمة بالانسانية على اختلاف طبقاتها وأجناسها ، وأوطانها .

ولذلك ثنّى الله تبارك وتعالى الانكار على عقيدة الشرك ، وعقيدة الأبنية أو الوالدية التي تبنتها المسيحية ، وتولت كبرها ، والانكار على عبادة هذه الحياة واتخاذ دارها المحل والقرار والانصراف اليها عن كل ماسواها ، ونوّه بقصر هذه الحياة ، وتداعي هذا الاساس الذي تقوم عليه في سورة الكهف فقال : ﴿**إنا جعلنا ما على الأرض زينة**

لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا﴾[1] .

وأعاد هذا الانكار والتشنيع على عبّاد الحياة الدنيا ومنكري الآخرة ، أو الغافلين عنها ، فقال :

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا[2]﴾ .

(١) سورة الكهف ـ ٧ ـ ٨

(٢) سورة الكهف ـ ١٠٣ ـ ١٠٤

الحضارة المادية لاتجلب الا الشقاء
وهى حضارة فانية

ان محمد اقبال قد لاحظ جوانب الضعف في هذه الحضارة وتركيبها والفساد الذي عجنت به طينتها لاتجاهها المادي وثورة أصحابها على الديانات والقيم الخلقية والروحية عند نهضتها وعلل فساد القلب والفكر الذي اتسمت به هذه الحضارة بكون روح هذه المدنية ملوثة غير عفيفة وقد جردها تلوث الروح عن الضمير الطاهر والفكر السامي والذوق السليم[1] ، وتسلط عليها ـ رغم المدنية الباذخة والحكومات الواسعة والتجارة الرابحة ـ القلق الدائم ـ لقد أظلم الجو في عواصمها بدخان المصانع المتصاعد الكثيف ولكن بيئتها ـ على كثرة أنوارها ـ غير متهيئة لفتح جديد في الفكر واشراق من عالم الغيب[2] ، انه نوّه بأساس الحضارة اللا دينية وبأنها عجنت مع الثورة على الدين فهى في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق وانها عاكفة على عبادة آلهة المادة وتؤسس لها معبدا

---

(١) ضرب كليم ، ص / ٦٩ .

(٢) ايضا ، ص / ١٤١ .

جديدا ، يقول في ديوانه «ماذا ينبغي ان تعمل شعوب الشرق ؟» .

ولكن اياك والحضارة اللا دينية التي هى في صراع دائم مع أهل الحق ان هذه الثقافة تجلب فتنا وتعيد اللات والعزى الى الحرم ، ان القلب يعمى بتأثير سحرها ، وان الروح تموت عطشا في سرابها ، انها تقضي على لوعة القلب بل تنزع القلب من القالب انها لص قد تمرن على اللصوصية فيغير نهارا وجهارا ، وانها تدع الانسان لا روح فيه ولا قيمة له[1] ، يقول : «ان شعار هذه الحضارة الغارة على الانسانية والفتك بأفراد النوع البشري وان شغلها الدائم التجارة» ، ان العالم لايسعد بالسلام والهدوء وبالحب البريء النزيه والاخلاص لله الّا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة ، يقول في الديوان الذي مر ذكره :

«ان شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم الذي تقوم عليه تجارتها وتنفق سلعتها ليست هذه المصارف العظيمة الّا وليدة دهاء اليهود الأذكياء الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم ، ان العقل والحضارة والدين

(١) مثنوى پس چه بايد كرد ص / ٣١ .(ماذا ينبغي أن يعمل الشرق) .

حلم من الأحلام مالم يعد هذا النظام رأسا على عقب[1]» .

إنها حضارة شابة ـ بحداثة سنها والحيوية الكامنة فيها ـ ولكنها كمحتضرة تعاني سكرات الموت ، وان لم تمت حتف أنفسها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها ، ولا غرابة في ذلك فان كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود[2] ، ان أساس هذه الحضارة ضعيف منهار وجدرانها من زجاج لا تحتمل صدمة[3] .

ان الفكر المارد الذي أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم[4] ، ان العصر يتمخض عن عالم جديد وان العالم القديم الذي حوله الغربيون مكانا للقمار يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الأمم يلفظ نفسه[5] ، ان نور الحضارة باهر وشعلة حياتها ملتهبة وهّاجة ولكن لم يكن في ربوعها من يمثل دور موسى فيتلقى الالهام ويتشرف بالكلام ولا من يمثل دور ابراهيم فيحطم الأصنام ويحول النار الى برد وسلام[6] ، ان عقلها

---

(١) ايضا ، ص / ٣٧ ـ ٣٨ (٢)ضرب كليم ، ص / ١٤١ ، يشير الى نفوذهم الزائد وثقة أوروبا النصرانية بهم . (٣) بال جبريل (٤) أيضا ، ص / ١٧٦ . (٥) أيضا ، ص / ١٧٦ . (٦) بيام مشرق ، ص / ٢٤٨ ، وفيه «أوروبا لم تكن أرض النبوة والأنبياء من الزمن القديم ولم يكن فيها اشراق روحاني انما ازدهرت فيها الماديات» .

الجريء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة ، إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون - حتى في ابتكارهم وثورتهم - عن الطريق المرسوم ، والدائرة المحدودة[1] .

لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة في أوروبا ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة ، ان أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء وحسن المظهر ونظافتها ، ان تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسر ملايين ، ان هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح به أوروبا ، ماهو إلاّ مظاهر جوفاء ليست وراءها حقيقة ، ان قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون درس المساواة والانسانية والعدالة الاجتماعية ، ان البطالة والعري وشرب الخمر والفقر هى فتوح المدنية الافرنجية وان الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوي والتنزيل الالهي غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار ، ان المدنية التي تتحكم فيها الآلات وتسيطر عليها الصناعة تموت فيها القلوب ويقتل فيها الحنان والوفاء والمعاني الانسانية الكريمة[2] .

وقد كان انتقاده واعتراضه للحضارة الغربية وأسسها ومناهج تفكيرها في محاضراته العلمية التي ألقاها

---

(١) ايضا . (٢) بال جبرئيل .

في «مدراس» ونشرت بعنوان : «تجديد الفكر الديني في الاسلام» أعمق وأكثر تركيزا بطبيعة الحال ، لأن جو البحوث الفلسفية غير جو الشعر والأدب فقال وهو يتحدث عن طبيعة الحضارة المادية في الغرب والانسان المعاصر الذي يمثلها ويتزعمها وعن الأمة والمشكلات التي يعانيها .

الرجل العصري بماله من فلسفات نقدية وتخصص علمي يجد نفسه في ورطة فمذهبه الطبعي قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق اليه لكنه قد سلبه ايمانه في مصيره هو .

الانسان العصري وقد أغشاه نشاطه العقلي كف عن توجيه روحه الى الحياة الروحانية الكاملة أي الى حياة روحية تتغلغل في أعماق النفس وهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه ، وهو في مضمار الحياةالاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة وحبه للمال حبا طاغيا لقتل كل مافيه من نضال سام شيئا فشيئا ، ولا يعود اليه منه الا تعب الحياة وقد استغرق في الواقع اي مصدر الحس الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات لأعماق المادية وهى ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه والذي أدركه هكسلي (HUXLAEY) وأعلن سخطه عليه .

والاشتراكية الملحدة الحديثة ـ ولها كل ما للدين الجيد من حمية وحرارة ـ لها نظرة أوسع أفقا لكنها استمدت أساسها الفلسفي من المتطرفين من اصحاب مذهب هيجل (HEGEL) وقد اعلنت العصيان على ذات المصدر الذي كان يمكن ان يجدها بالقوة والهدف وهى اذن ليست بقادرة على أن تشفي علل الانسانية .

ومحمد اقبال يصف هذا المجتمع ـ الأوروبي ـ بمجتمع يحركه تنافس وحشي وهذه الحضارة بحضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية .

وينظر محمد اقبال ـ ككل مطلع خبير الى الرأسمالية والشيوعية كفرعين من دوحة المادية ، وأسرتين للحضارة الغربية ، احداهما شرقية والأخرى غربية تلتقيان على النسب المادي والتفكير المادي والنظر المحدود الى الانسان ويقول بلسان جمال الدين الأفغاني ـ في رحلة فكرية تخيلها واجتمع به فيها ـ ان الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية وذهبوا يبحثون عن الروح في المعدة ان الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ولكن الشيوعية لا شأن لها الاّ بالمعدة والبطن وديانة ماركس مؤسسة على مساواة البطون ، ان الاخوة الانسانية لاتقوم على وحدة الأجسام والبطون انما تقوم على محبة القلوب وألفة النفوس .

ان الملوكية والشيوعية تلتقيان على الشره والنهامة والقلق والسآمة والجهل بالله والخداع للإنسانية والحياة عند الشيوعية خروج وعند الملوكية خراج والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة زجاج ، ان الشيوعية تقضي على العلم والدين والفن والملوكية تنزع الروح من أجسام الاحياء وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادة ، جسمهما قوي ناضر وقلبهما مظلم فاجر .

الحضارة الغربية والأقطار الاسلامية :

ويعتقد محمد اقبال أن هذه الحضارة غير قادرة على اسعاد البلاد الاسلامية واعادة الحياة اليها ، يقول :

ان الحضارة التي قد اشرفت على الموت لا تستطيع ان تحيي غيرها وقد جزت من إحسان هذه البلاد الشرقية إساءة من جانبها وكافأت خيرها بشر منحها الشام نبيا رسالته العفة والمواساة والرحمة ومقابلة الشر بالخير والظلم بالعفو وقد منحته أوروبا ـ بدورها ومقابل كل ذلك ـ الخمر والقمار والفجور وهجوم المومسات .

نقده لدعاة التجديد في الشرق :

إنه يسيء الظن بدعاة التجديد ـ وبالأصح

التغريب ـ في الاقطار الاسلامية وخشي ان تكون الدعوة الى التجديد حيلة وستارا لتقليد الافرنج ، يقول : انني يائس من زعماء التجديد في الشرق فقد حضروا في نادي الشرق بأثواب فارغة وبضاعة مزجاة في العلم والفكر .

ان البحث عن برق حديد في هذا السحاب عبث واضاعة وقت فقد تجرد هذا السحاب الجهام عن البرق القديم فضلا عن البرق الجديد .

انه يعارض التقليد الأعمى في أمة من الأمم ولا سيما الأمة التي خلفت لقيادة الأمم واحداث الثورة في العلم ، ويقول :

«ان الذي يأتي بالجديد في هذا العالم الذي يتجدد دائما هو نقطة الدائرة التي يطوف حولها الزمن لا تعطل شخصيتك ـ أيها المسلم ـ بالتقليد الأعمى واحتفظ بكرامتك فانها الجوهر الفرد» ، ان التجديد (بمعنى التغريب) لا يليق الاّ بأمة لا تفكر في الدعة والترف انني اخاف ان الدعوة الى التجديد انما هى حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب .

انه يعاتب الأمم الشرقية الاسلامية التي كان دورها دور التوجيه والقيادة وأصبحت تمثل دورة التلمذة الخاشعة والتقليد الذليل ، يقول : ـ وكأنه يشير الى الشعب التركي الاسلامي ومن كان على شاكلته ـ :

«ان أولئك الذين يستطيعون ان يقودوا عصرهم اصبحوا بسخافتهم يقلدونه ويمشون وراءه» .

وفي «جاويد» يحكي محمد اقبال انتقاد الأمير سعيد حليم باشا للثورة التي قام بها اتاتورك في تركيا ويذكر سطحيتها وتفاهتها ، وأن زعيمها وقائدها محروم من كل ابداع وابتكار من كل أصالة فى التصميم والتخطيط ، وانه ليس الاّ مقلدا أعمى لأوروبا ، يقول :

«ان كمال الذي تغنى بالتجديد في حياة تركيا دعا الى محو كل أثر قديم وتراث قديم» ، ولكنه جهل ان الكعبة لا تجدد ولا تعود الى الحياة والنشاط اذا جُلِبت لها من أوروبا أصنام جديدة ، ان زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة ، انما هى كلها اغان مرددة معادة تتغنى بها أوروبا من زمان ، ان الجديد عنده هو القديم الاوروبي الذي أكل عليه الدهر وشرب ليس في صدره جديد وليس في ضميره عالم حديث فاضطر الى أن يتجاوب مع العالم الأوروبي المعاصر انه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته .

إيمانه بفضل الحضارة الاسلامية وحيويتها :

انه شديد الايمان بما تضمره الحضارة الاسلامية والشريعة الاسلامية من حيوية خالدة وقوة دافقة

وامكانيات واسعة لتكوين عالم جديد وتأسيس مجتمع جديد يقول في خطبته التي ألقاها رئيسا لمؤتمر الأحزاب الاسلامية في دلهي سنة ١٩٣٣ م مخاطبا المسلمين :

ان الدين الذي تحملون رايته يقرر قيمة الفرد ويربيه تربية تجعله يبذل كل ما عنده في سبيل الله وفي صالح عباده ، انما مضمرات هذا الدين القيم وكوامنه لم تنته بعد ، ان في استطاعته ان يوجد عالما جديدا يحيا فيه الفقراء أغنياء لايقوم فيه المجتمع البشري على مساواة البطون بل يقوم على مساواة الأرواح .

المعمل الاسلامي الجديد :

ولذلك كان يعتقد ـ بكل اخلاص وحماس ـ انه لابد من وجود رقعة حرة تقوم فيها عملية الحياة الاسلامية بجميع نواحيها وشعبها وتتجلى فيها عبقرية الشريعة الاسلامية وعدل النظام الاسلامي وتستطيع فيها الطريقة الاسلامية في الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيرا عمليا وثقافيا ، ولما كانت الهند ـ كما قال في خطبة رئاسته للعصبة الاسلامية سنة ١٩٣٠ م ـ قطرا تسكن فيه جالية تكوِّن أكبر مجموعة اسلامية في بلد واحد كانت أحق بتقديم هذه التجربة ، وبتكوين هذا المركز الاسلامي وبتعبير أدق المعمل الذي يثبت فيه الاسلام صلاحيته

لتكوين المجتمع الصالح وتنظيم الحياة الاجتماعية وحل المشكلات الاقتصادية وتوجيه المدنية توجيها صالحا والتطبيق بين العقيدة والعمل والروح والمادة والفرد والجماعة تطبيقا يثير العجب والاعجاب ويحمل قادة الأقطار الاسلامية على التقليد ويحمل المفكرين في العالم على التفكير في أسلوب جديد .

الاستشراق إدارة علمية وفكرية للاستعمار والتبشير ويعكس طبيعة الجدل والتمويه التي تتسم بها الحضارة الغربية

المستشرقون وعلماء الغرب الذين كرسوا حياتهم على دراسة العلوم الاسلامية ، ويملكون اعجاب الاوساط العلمية في الشرق والغرب واجلالها وتقديرها ، ويقام لآرائهم ونظرياتهم في البحوث الاسلامية في الشرق وزن كبير أثاروا في قلوب قادة العالم الاسلامي اليوم وزعمائه ـ ممن تثقفوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى ، أو درسوا الاسلام في نفوسهم بلغات الغرب ـ شبهات حول الاسلام والمصادر الاسلامية ، وأحدثوا في نفوسهم يأسا عن مستقبل الاسلام ومقتا على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما ان لهم سهما كبيرا في الحث على نعرة «اصلاح الديانة» و «اصلاح القانون الاسلامي» .

ان تاريخ هذا الاستشراق قديم يرجع الى القرن السادس عشر الميلادي بالوضوح ، والعوامل التي كونت هذا التاريخ انما هى دينية وسياسية واقتصادية ، أما العامل الديني فواضح لا غموض فيه ، وهو يهدف الى نشر الديانة المسيحية وتبليغ دعوتها ، وتصوير الاسلام تصويرا يثبت فضل المسيحية ورجحانها على الاسلام ،

ويبعث في الطبقة المثقفة اعجابا بالمسيحية وحرصا عليها ، ولذلك نرى أن الاستشراق و «التبشير» يسيران معا في أغلب الأحوال وأن عدد المستشرقين الأكبر أساقفة ، وعددا كبيرا منهم يهود ديانة وجنسا

والعامل السياسي هو أن المستشرقين بصفة عامة كانوا رواد الدول الغربية في الشرق ، ومن واجبهم أن يمدوها بمددهم العلمي ، وكانوا مصادر وثيقة للغرب يطلع بها على تفاصيل ومعلومات عن تقاليد الشعوب الشرقية وبلدان الشرق ، وعن طبيعتها ومعيشتها ، ولغاتها وآدابها ، حتى عواطفها ونفسياتها ، وذلك ليتسنى للغرب ان يبسط نفوذه وسلطته في الشرق .

وزد الى ذلك ما يقوم به هؤلاء المستشرقون من الرد على الأفكار والعقائد وقمع الحركات والأوضاع التي تسبب للدول الغربية صداعا وعرقلة ، وتحدث لها مشكلات وعقبات ، ويحاولون خلق جو لاتكاد تخطر فيه معارضة بل تحدث هالة من التقديس والاجلال حول حضارتهم حتى يعترفوا بمآثرهم وجلائل أعمالهم ، ينبعث فيه دافع الاقتداء والتقليد الذي يحملهم على الاقتفاء بآثارهم في سبيل اصلاح البلاد وترقيتها ، وتظل سلطة حضارتهم وعقليتهم مضمونة على النفوس ، رغم ذهاب دولهم ونهاية حكمهم .

ولذلك فقد شعرت الدول الغربية بقيمة

المستشرقين ومكانتهم شعورا كاملا وساعدهم زعماؤها عن كل طريق ممكن ، ولتحقيق هذا الغرض يصدر المستشرقون من مختلف أقطار الغرب عدة مجلات ورسائل حول العالم الاسلامي وينشرون فيها مقالات تحليلية ومواد تحقيقية عن مشكلات العالم الاسلامي وميوله ونزعاته ، ولا تزال تصدر مجلة «الشرق الاوسط» (JOURNAL OF THE NEAR EAST) ومجلة « العالم الاسلامي » (THE MUSLIM WORLD) من امريكا ، ومجلة (LE MONDE MUSULMANS) من فرنسا .

كما ان هناك عاملا اقتصاديا للاستشراق يتخذه كثير من المثقفين كمهنة ناجحة ، وكثير من اصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها ، يشجعون نشر المؤلفات والكتب التي تدور حول الاسلاميات والشرقيات ويشرفون على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة في أوروبا وآسيا ، وتنال هذه المؤلفات من القبول والاعجاب ما يجعلها عظيمة الانتشار كثيرة الذيوع ، وهى لاشك وسيلة لتجارة رابحة ، وكسب أموال خطيرة .

غير ان عددا من المثقفين يتبنون موضوع الشرقيات والاسلاميات دون تأثير هذه العوامل ، وبمجرد ذوقهم وشغفهم ويبذلون فيه جهودا ضخمة ، ويكون من المكابرة والتقصير ألاَّ ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها وبفضل جهودهم وبرز كثير من نوادر العلم والمعارف التي

لم تر الشمس منذ قرون ، الى النشر والاذاعة ، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين ، وعاهة الأرضة ، وكم من مصادر علمية ووثائق تاريخية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وقرت بها عيون العلماء في الشرق .

ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعلمهم لايمنع الكاتب شيء من أن يصرح ان طائفة المستشرقين هى التي لم يرافقها التوفيق الالهي في غالب الأحيان على مادرسته من علوم القرآن والسنة والسيرة النبوية والفقه الاسلامي والأخلاق والتصوف ، وغاصت في أحشائها ، ولكنها خرجت صفر اليد لا حظَّ لها من الايمان واليقين بل وزادت الفجوة بينها وبين هذه العلوم لما أضمرته في قلبها من عداوة للاسلام ، وبعد عن الحق ، وأكبر سبب لذلك هو ان ثمرة الاعمال تابعة لغايتها وهدفها ، والمعلوم ان غاية هؤلاء المستشرقين بوجه عام انما هى البحث عن مواضع الضعف وابرازها لأجل غاية سياسية أو دينية فلا يرون في مدينة ذات بهجة الا المزابل والمراحيض ، كما هو دأب مفتشي النظافة في كل مكان .

وليس حرمان هؤلاء المستشرقين محدودا الى ذواتهم فحسب ، ولو كان ذلك وحده لم ينل منا هذا الاهتمام ، ولكن الناحية المهمة ذات التأثير العميق لهذه القضية هى ان المستشرقين يركزون كل جهودهم ومساعيهم على

تعريف مواضع الضعف وتمثيلها في صورة مروعة ضخمة ، انهم ينظرون اليها عن طريق الآلة المكبرة ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلا ، والنقطة بحرا ، وقد ظهرت حذاقتهم وذكاؤهم في تشويه صورة الاسلام .

ومن دأبهم ان يعينوا لهم غاية ويقرروا في انفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقوموا لها بجمع معلومات ـ من كل رطب ويابس ـ ليس لها اي علاقة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة والتاريخ او الادب والشعر أو الرواية والقصص ، أو المجون والفكاهة ، وان كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ، ويقدمونها بعد التمويه بكل جرأة ويبنون عليها نظرية لايكون لها وجود الاّ في نفوسهم وأذهانهم .

انهم في اغلب الأحيان يذكرون عيبا واحدا ويجوِّدون لتمكينه في النفوس بذكر عشرة محاسن ، وذلك كي يخشع القاريء أمام سعة قلبهم وسماحتهم ، ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن ، وانهم يصورون بيئة دعوة أو شخصية ، وتاريخها ، وعواملها الطبيعية بلباقة وبلاغة تصوران أن هذه الدعوة والشخصية لم تكن الا نتاج هذه البيئة أو العوامل ورد فعلها الطبيعي ، فيذكر القاريء أي اتصال بمصدر غير مادي ولا يعترف لها بقدس وعظمة ، وكثير من هؤلاء

المستشرقين يدسون في كتاباتهم مقدارا خاصا من «السم» ويحترسون في ذلك فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم حتى لايستوحش القاريء ولا يثير ذلك فيه الحذر ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف ، ان كتابات هؤلاء أشد خطرا على القاريء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ويصعب على رجل متوسط في عقليته ان يخرج منها او ينتهى من قراءتها دون الخضوع لها .

لقد قام المستشرقون بعملية التحقيق في كل موضوع من مواضيع الكتاب والسنة والسيرة النبوية ، والفقه والكلام ، كما تحدثوا عن الصحابة الكرام والتابعين والأئمة المجتهدين ، والمحدثين والفقهاء ، والمشائخ والصوفياء ورواة الحديث ، وعن فن الجرح والتعديل ، وأسماء الرجال ، وحجية السنة ، وتدوينها ، ومصادر الفقه الاسلامي ، وتطوره في اسلوب لا يخلو عن التشكيك واثارة الشبهات ، ويكفي لزعزعة العقيدة والترغيب عن الاسلام لرجل ذكي ليس له نظر عميق في هذا الموضوع ، ولسنا الآن بصدد استعراض علمي وايضاح تحريفاتهم وأخطائهم الفنية ودجلهم وتلبيسهم ، فانه لاشك موضوع علمي مهم ، وخدمة دينية عظيمة ، تحتاج الى مجمع علمي منظم[1] .

---

(١) الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص / ١٨٧ ـ ١٩٠ .

الاعتماد على المستشرقين أكبر عامل للتبعية الفكرية في العالم الاسلامي

ومما يدل على ضعف العالم الاسلامي والعربي وفقر وسائله العلمية أن هذين العالمين كليهما يعتمدان على مؤلفات المستشرقين في المواضيع الاسلامية الخالصة منذ زمن بعيد ، وهى مؤلفات تحتل مكانة "الكتاب المقدس" (GOSPEL) في موضوعها ، فإن كتاب : ر ، أ ، نكلسن (R.A. NICHOLSON) في موضوع تاريخ آداب العرب (A LITERARY HISTORY) وكتاب الدكتور حتى (DR. H.P. HITTI) عن تاريخ العرب والاسلام (HISTORY OF ARABS) وكتاب كارل بروكلمان (CARL BROCKLEMANN) في تاريخ الآداب العربية (GESCHICHTE DER ARABICHEN LITERATURE) باللغة الألمانية وترجمتها الى الانجليزية باسم (THE HISTORY OF ARAB LITERATURE) ، وكتاب شاخت (SCHACHT) في مصادر الفقه الاسلامي باسم (HISTORY OF ARABS) .

كل ذلك مما ينفرد في موضوعه ، ويعد مصدرا علميا له اهميته وقيمته بجامعات الشرق في قسميها العربي

والاسلامي ، وعليه اكبر اعتماد المؤلفين في الاقسام الاسلامية في الجامعات .

ان «دائرة المعارف الاسلامية» التي ألفها المستشرقون ولو كان فيها لبعض المسلمين اسهام ضئيل ، وصدرت منها طبعات متعددة ، في أوروبا وأمريكا ، تعد أكبر مصدر للمعلومات والحقائق الاسلامية وأثمن ذخيرة لها ، وتعتبرها بعض البلاد الاسلامية اليوم (كمصر وباكستان) أساسا للمعلومات الاسلامية وتقوم بترجمتها الى العربية والأردية .

ولا يخفى على البصير ما يتجلى في كتابات المستشرقين المسيحيين من روح التبشير ومرارة ذكريات الحروب الصليبية والتعصب على الأتراك ودوافع الانتقام ضدهم ، ويوجد من بين هؤلاء المستشرقين الذين يعتبرون من متحمسي الدعاة إلى الثورة على الشريعة الاسلامية والقانون الاسلامي في العالم الاسلامي عدد وجيه من اليهود يتعصب للديانة اليهودية واتباعها ويظهر من كبار الرجعيين المتزمتين المتعففين عند معالجة للمواضيع الاسلامية .

ولسد تأثير المستشرقين الهدام ، واصلاح هذا الفساد يجب ان يقوم علماء الاسلام من رجال البحث والتفكير بالكتابة حول الموضوعات العلمية ، ويقدموا للعالم الاسلامي المعلومات الاسلامية المؤكدة ، ووجهة

نظر الاسلام الصحيحة ، مع مراعاة الجوانب المحمودة التي يمتاز بهاالمستشرقون ، بل والزيادة فيها ، كما يجب ان تكون كتاباتهم ومؤلفاتهم ممتازة من حيث أصالة التحقيق ، وسعة الدراسة ، وعمق النظر وتأكد المصادر وصحتها ، واستدلالها اللغوي بالنسبة لكتابات المستشرقين ومؤلفاتهم ، وأن تكون حاملة لجميع نواحي الاستحسان ، بعيدة عن الاخطاء والنقائص العلمية .

ومما يجب ايضا هو ان يقوم هؤلاء العلماء والمفكرون باستعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ومحاسبتها في ضوء الحقيقة والواقع ، حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم ، وأخطائهم في فهم النصوص وبيان المعنى ، ويبدو للناس ضعف مصادرهم التي يعتمدون عليها وأخطاء النتائج التي يستنبطونها منا ، ويطلعون على مايضمرون في نفوسهم من عداء للاسلام ، وما يكنونه من اغراض سياسية ودينية في خفايا دعوتهم وتربيتهم ، وكل ذلك مؤامرة على الاسلام والأمة الاسلامية يجب احباطها .

أما بدون الجمع بين هذا العمل الايجابي الذي يقتضي تأليف كتب تحليلية وابحاث عميقة حول المواضيع الاسلامية ، وبين العلم السلبي . . . (بالمحاسبة العلمية) فلا تتحرر الطبقة المثقفة التي تعد من أذكى الطبقات في العالم الاسلامي وأكثرها طموحا ، والتي تدرس في جامعات أوروبا وأمريكا الكبرى . . أو في

جامعات بلادها ، وتحب دراسة الإسلام بلغات الغرب التي تتقنها ، ومالم تتحرر هذه الطبقة المثقفة التي ترزح تحت تأثير أفكار الغرب وعلمائه من تأثيرهم فلا تزال تواجه الأقطار الاسلامية عاصفة الاضطرابات العقلية ، والردة الفكرية ، ويتبنى حملة الجديد والتغريب ، وأفكارهم وآرائهم ، حتى اذا تمت لهم سلطة سياسية حاولوا تطبيق كل ما ينافي روح الاسلام على المجتمع وتنفيذه في الحكم ، ويشكلون بذلك مجتمعا يشبه المجتمع الاسلامي القديم في الجنس والقوم فحسب ، ولكنه يتجه نحو الغرب والمادية في الحقيقة والواقع ، ويصح عند ذاك ان يخطب قادة العالم الاسلامي وعلماؤه بهذا البيت الفارسي الذي معناه :

«مهلا أيها الاعرابي فان الطريق الذي اخترته يذهب بك الى باكستان ، وأنت تريد الكعبة[1]» .

(١) الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص / ١٩٦ ـ ١٩٧ .

الدعوة إلى نبذ الدين خداع اليهود والمسيحيون أكثر تعصبا مما يتظاهرون

ان دولة اسرائيل المزعومة لم تقم الاّ على أساس خالص للدين ، ان في تشبثها بتعاليم التوراة والعض عليها بالنواجذ في كل مجال من مجالات العلم والدين والسياسة والاجتماع ، وفي الحياة الفردية واليومية ، لعبرة كبيرة للعالم الاسلامي ودليلا ساطعا على ان التقدميين ذوو لسانين ، فانهم يتكلمون مع اخوانهم واتباعهم بغير مايتكلمون به مع الآخرين ، وهم يركزون جهودهم ودعوتهم على نشر الالحاد والعلمانية ، والمحاربة للدين في الأقطار الاسلامية الغرة التي استقلت حديثا .

وفيما يلي مقتطفات لأحد الشيوعيين العرب سابقا ، الذي عاش مع الشيوعيين اليهود جنبا الى جنب وعمل معهم الى مدة طويلة ، انه يقول :

«في قطب بلادنا تقوم دولة تحمل اسم نبي من التوراة» ، ليس لها دستور لأن الأحزاب الدينية تصر على ان التوراة هى الدستور . . . محرما فيها العمل يوم السبت ولم تر في ذلك اى اخلال باقتصادها وارتباطها بالبنوك العالمية التي تتعطل يوم الاحد ، بل يحرصون على ان تكون الجلسة الاسبوعية للكنيست يوم الاحد ـ ومحرم

فيها على الجيش طبخ الطعام يوم السبت . . . تقول بائيل دايان في «مذكرات جندي» : «أكلنا طعامنا مطهرا يوم السبت ٣ يونيو بتصريح خاص من الحاخام الأكبر» ، جيش اسرائيل الذي يوشك ان يمتلك القنبلة الذرية يمتنع عن طبخ الطعام يوم السبت ، وبنغوريون وشازار يسيران ميلا ونصف ميل على الأقدام في جنازة تشرشل لأنها صادفت يوم السبت ومحرم في التوراة ركوب وسائل النقل يوم السبت ، وعمر بنغوريون ٧٨ سنة وعمر شازار ٧٦ سنة في وقت الجنازة ، ولم تجد الصحافة العالمية ولا الرأي العام الانجليزي في ذلك مدعاة للسخرية ، لكنها تجد في ذلك مدعاة للاعجاب ، نصف المصلين في مسجد الخليل من العسكريين اليهود ، ونفخوا في البوق ايذانا بانتهاء الصوم ، وجميع طائرات شركة «العال» الاسرائيلية وسفن شركة «ذيم» لاتقدم لحم الخنزير ، في اسرائيل احزاب دينية معترف بها ولها وزنها ، الزواج المدني غير معترف به لحد انهم رفضوا اعطاء الجنسية لحفيد بن غوريون لأنه من أم غير يهودية ، واللغة العبرية لغة رسمية ، درسوا بها الصواريخ وافساد الرادار ، وضرب الطائرات على المدرجات ، وألفوا بها أدبا نالوا به جائزة نوبل العالمية ، في نفس الوقت ولأجل أن تقوم اسرائيل صدروا الينا عملاء يجعلون لب كفاحهم فصل الدين عن الدولة ، ويصابون بالفالج عندما يسمعون بأن الدستور سينص على

ان دين الدولة هو الاسلام ، ويسودون الصحائف في أضرار رمضان على الانتاج ونحن أمة مستهلكة والحمدلله ، والذين ألغوا شعار الهجوم «الله أكبر» من الجيش ولم يعيدوه الاّ بعد النكسة بخمسة عشر شهرا ، بينما اول دبابة اسرائيلية دخلت سيناء مكتوب عليها آية من التوراة ، وتصاب بالذين تشغلهم صعوبة اللغة العربية ويبحثون عن حروف اخرى لها أو عزلها عن مجال العلم بزعم انها لغة متخلفة ، والعبرية التي انقرضت منذ الفى سنة اصبحت لغة العلم» .

ولكي نطلع على شيء من سياسة اسرائيل وطريقتها في مجال العلم نقدم بعض المعلومات عن مؤلفات وتقارير خبراء التعليم في الشرق الاوسط .

يقول الدكتور رودر مايثوز ، والدكتور متى عقراوي في كتاب «التربية في الشرق العربي» :

«ان اهم مايسترعى الانظار في المدارس الاسرائيلية في فلسطين ان لغة الدراسة في كافة المواد هى العبرية فيما عدا اللغات الانجليزية والفرنسية والعربية والعناية شديدة في جميع مراحل التعليم بالدراسة الدينية وجعل التعليم الديني اساس الصهيونية وتقدمها» .

ويفهم مما يلي هذه العبارة ان جميع انواع المدارس الإسرائيلية او اتجاهاتها تبعا بالأحزاب التي ينتمي اليها آباء التلاميذ رغم اختلاف هذه الأحزاب في مثلها العليا

التعليمية والدينية والسياسية تلتقي على هذه الفكرة الاساسية وتعنى عناية خاصة بالتربية الدينية ، ويرى بعضها ان التقاليد الدينية اليهودية هى البنراس الذي ينبغي ان تستهدي به نظم التعليم ويحتم بعضها على المعلمين أن يكونوا تقليديين ، أي يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية .

وجاء في مقال «التعليم العالي في اسرائيل» في مجلة «فلسطين» مقتبسا من الدراسة التي قدمتها دائرة البحوث والدراسات في الهيئة العربية العليا لفلسطين مايلي :

«ان سياسة التعليم العالي تهدف الى تنمية العقيدة اليهودية والولاء بالاضافة الى الدعاية لاسرائيل وكسب الأصدقاء» ، وفي المقال تفاصيل هائلة عن «العناية باللغة العبرية وجامعاتها وميزانيتها وتمويلها وما يبذل لها اليهود من عناية فائقة ، وأموال طائلة ، وتنظيمات دقيقة» .

ومما يبعث على الاستغراب الشديد بعد الاطلاع على هذه السياسة ذات الوجهين التي اتخذها المثقفون من غير المسلمين في بلادهم وأمتهم نحو الاقطار الاسلامية وشعوبها المسلمة ، ان نرى عقلاء البلاد وقادتها فريسة الدعاية المنافقة للعلمانية والتجديد ، في غاية من البساطة والاغترار ، ولعل هؤلاء العقلاء اليهود والمسيحيين والمستشرقين من اصحاب القلم والصحافة لم يكونوا يقدرون ان الزعماء المسلمين ينخدعون بمثل هذه السهولة

ويؤمنون بتوجيهاتهم في مثل هذه السرعة ، ويصبحون لها دعاة متحمسين في بلادهم من غير ان يشعروا بهذه الحقائق النيّرة ، كما أثبتت التجربة العملية ذلك ، وسوف لايوجد نظير في تاريخ العالم الفكري والمدني ، لافلاس القيادة الفكرية واغترارها ، مثل الذي قدمته القيادة المسلمة في هذا القرن العشرين(١) .

(١) الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص / ١٦٥ ـ ١٦٧ .

لا سعادة حقيقة إلا بالدين
أوروبا أخفقت في إسعاد الانسان
بعلومها ووسائلها المادية

ادَّعى علماء الغرب ان المجتمع الانساني المتمدن يمكن ، لا بل يجب ان يقوم على غير اساس الايمان وتعاليم الأديان ، والقيم الخلقية والرسالات السماوية انه يستطيع ان يقوم على اساس العلم والتنظيم ، والصناعة والاقتصاد ، والوعي السياسي ، والقومية والوطنية والاتفاقات والتعهدات الاجتماعية الدستورية ، وان المجتمع يسعد ويترفه بالوسائل والآلات التي تمنحها علوم الطبيعة والكيمياء وتسخير الكـون والطبيعة لصالح الانسان ورغباته وطموحه ، وتذليل العقبات التي كانت نتيجة الجهل للعلوم الكونية والطاقات البشرية ، وان سر شقاء الانسان في العصر الماضي صعوبة التعارف ، والتفاهم بين أعضاء الاسرة الانسانية في انحاء الارض ، وفي مختلف القارات والأقاليم .

لقد ألح الغرب على هذا المعنى وتحمس له تحمس المؤمنين الجدد ، وكان هتافه «لا اله ولا دين ولا غيب ولا ايمان ولا روح ولا أخلاق ولا آخرة» انما هو حس وتجربة أو لذة أو منفعة أو قومية ووطنية ، او غريزة وعاطفة او

ديموقراطية أو جمهورية ، او اشتراكية وشيوعية ، وبرز في الميدان أئمة هذه الفلسفات وأبطال هذه الدعوات وتلاميذهم ومعارضوهم على اختلاف فلسفاتهم ونزعاتهم ، وكثرة مذاهبهم وتوزعوا العالم الغربي وخضع لهم كل شيء وازدهرت مدارسهم مدة طويلة ولاتزال تسيطر على العقول والآداب ومراكز السياسة ودور الاختبار ، والمجتمع الأوروبي المعاصر قد اقتبس من هؤلاء وتأثر بمجموعهم في قليل أو كثير ، وآمن بالقدر المشترك بينهم وهو «المادية» .

منحت أوروبا فرصة لتحقيق هذه المباديء التي آمنت بها في سخاء وحرية لا نظير لها في تاريخ الحضارات ، وهى أطول فرصة مع أعظم مقدار من الآلات والوسائل والتسهيلات التي تمنح القيادات في التاريخ على يد عمالقة نوابغ عبقريين في العلم والاختبار ، والتنظيم والادارة ، وليست على وجه الارض قيادة تعارض هذه القيادة ، أو دولة قوية تعرقل سيرها ، وقد وضعت الكنيسة النصرانية أوزارها قديما أمام طموح أوروبا المادي والفكري ، والنهضة العقلية الوثابة التي لا قبل لها بها ، وخضع الشرق الاسلامي لغزواتها السياسية والفكرية في القرن التاسع عشر المسيحي ، وخَلا لها الجو ، ودان لها العالم بشرقه وغربه وشماله وجنوبه .

لقد أمكن أوروبا المادية ان تبرز جميع مواهبها ،

وأن تمثل «المادية» على المسرح العالمي في جو مليء بالهتاف والتصفيق والتأييد والتصديق ، فاذا كان لمسرحية في العالم ان تنجح كان ذلك لهذه المسرحية التي يمثلها أبرع رجال في أوفق أحوال .

ولكن ماذا كان ؟ اخفقت هذه المسرحية التي كانت حصيلة أذكى عقول بشرية وأغنى قرائح انسانية في أهدافها ومراميها اخفاقا لم يعرفه التاريخ .

عداء داخلي وخارجي ، صراع بين الأفراد والطبقات ، والشعوب ، غيوم الحرب الكثيفة التي تغشى العالم كله وبركان متهيأ للانفجار لأدنى مناسبة ، ونذر صارخة لنهاية البشر الأليمة وفقدان الثورة والهدوء والأمن العاطفي ، وتسلط الذعر والفزع على الأعصاب ، وقلق دائم ، وتفسخ خلقي كبير يتخطى القياس وفراغ روحي هائل لا يملأه شيء ، وسآمة لا نهاية لها ولا علاج ، وتشاؤم ويأس وحيرة .

إن قصة اخفاق الحضارة الغربية قصة معادة مكررة ، ولكنها قصة يجب ان تروي وتتلى ، وتعاد وتكرر ، وهى قصة تهم الانسان في كل مكان وتتصل به ، وبحياته من أقرب طريق ، ولأن في الشرق من لايزال يؤمن بعصمة هذه الحضارة وقدسها ولا يصدق ان مثلها يخفق ويخيب ، أو أنها قد أفلست في معنوياتها وهو

يراها تبرهن على وجودها وقوتها في الشرق والغرب .

لقد جرب العالم الاسلامي هذه الحضارة واكتوى بنارها ، وعاش فيها زمنا طويلا ، وشاهد اخفاقها ، وتهيؤها للانهيار في كل مكان ، شاهد ذلك في أخلاق الساسة وقسوتهم وموت العاطفة الانسانية في قلوبهم ، وفي أخلاق الشعب ورخص قيمة الأعراض في عينه ، وهدر الكرامة الانسانية وضياع القيم الخلقية وفشو الجنايات والسفالات في المجتمع وعجز قادة الفكر والسياسة عن ايجاد رسالة انسانية تنفخ روحا جديدة في المجتمع وتسوق الأمم نحو هدف واحد وتجمع شملها ، وعن ملء الفراغ الروحي وعن اعادة الهدوء والسلام ، والثقة بالانسان ومستقبله الى غير ذلك مما يتسم به هذا المجتمع الراقي الذي بلغ أوج الحضارة والتنظيم والوعي .

يتجلى لكل من يشاهد هذه الآثار ان كل مجتمع لايقوم على اساس الايمان انما هو مجتمع يقوم على شفا جرف هار ، لابد له ان ينهار ، وان طال أمده ، واتسع سلطانه ، ولا سبيل الى «الايمان» إلّا دعوة الأنبياء والرسل وسيرتهم ، الذين يملأون الأمم الواسعة والجماهير الكثيرة بالروح الخلقية وقوة الايمان والانسانية السامية التي ليس فوقها الا الصفات الإلهية ويشعلون قلوب الملايين ـ من

غير مدارس وجامعات ومجامع علمية ووسائل للنشر والتأثير ـ ايمانا وحماسة وزهدا في المطامع والزخارف ، وقوة مقاومة للشهوات وإيثارا للآخرة على الآجلة وايثارا لغيرهم على نفوسهم وحبّا لله ، الذي لايرونه بعيونهم ولا تتناوله حواسهم والتفاني في رضاه وهذه سيرتهم وكتب التاريخ تحكي عنهم وعن اتباعهم كل غريب وكل معجب ، ولولا التواتر ولولا الآثار لسارعت النفوس الى تكذيبه والشك فيه ، وهم الذين انقذوا البقية الباقية من الحضارة والمجتمع البشري من رسل الهمجية والفوضى والوحوش مرات عديدة ، وحفظوا السفينة البشرية من الغرق في آخر لحظة ، وفيها التراث الحضاري وكل ماشاده البشر في آلاف من السنين وصانوا القيم الخلقية والمفاهيم الصالحة من الضياع والتلف الى آخر الأبد ، ومدوا في أجل السلالة البشرية ومنحوها ـ بجادهم الطويل وإخلاصهم العميق ـ حق البقاء وجدارة الحياة .

ومن المقرر المشاهد الذي لاشك فيه ان هذه الأديان التي أسعفت الانسانية في أزماتها ومحنها المختلفة ، وفضلها لاينسى في تاريخ المدنية ، قد فقدت قوتها وحياتها مع امتداد الزمن وطوارق الحدثان ، وأصبحت فتيلة قد نفد زيتها ، أو كحبوب عصرت الى آخر قطرة فهى لاتسمن ولا تغني من جوع ، وهي ليست من القوة والحياة بمكان تستطيع فيه ان تقاوم هذه المدنية القوية

وإغراراتها الجارفة ، وليس في الذين لايزالون يدينون بها ويحملون أسماءها ثقة بهذه الاديان ، وصلاحها لكل زمان ومكان ، وحماسة للدعوة اليها والجهاد في سبيلها ، ولمواجهة المدنية العصرية وتحدياتها ، وجلهم أو كلهم قد وضع أوزاره امام المادية الغربية واعتزل المعترك ، وآمن بأن «المادية» لا مفر منها ، وأنها مصير الانسانية المحتوم .

الاسلام هو الدين :

ان هنالك دينا لايزال في حياته ، وأصالته ونقائه ، ولايزال أهله يعتقدون أنهم مأمورون بتبليغ الرسالة وانقاذ المدنية والحسبة على الانسانية ومسئولون أمام الله وأمام الخلق عن اتجاهات هذا العالم ، ويمتازون بين أهل الأديان بأربع ميزات بارزة :

أولها : وجود هذا الكتاب العظيم المتدفق بالحياة ، الكفيل بسعادة البشرية وتوجيهها ، يحمل أعظم علم وأعمقه بين دفتيه ، ويملك أعمق تأثير في القلوب والعقول ، وهو ثروة البشرية العظمى والمعين الذي لاينضب ، والمدد الذي لاينفد ، قد أحدث أعظم ثورة في تاريخ البشرية ، ويستطيع اذا اطلق له العنان وحكم في قيادة الانسان ان يحدث اعظم ثورة أخرى .

والميزة الثانية : هذه السيرة النبوية العطرة التي هى اجمل صورة على الاختلاف في مجموع الصور البشرية الغنية ، وأعظم صفحة مشرقة في تاريخ البشر تعيد الى الانسانية كرامتها ومكانتها ، وتعيد الثقة والاعتزاز في نفس الايمان بأشرفية النوع الانساني ، الصورة التي لايملك امامها الانسان ـ اذا لم يفقد حسن الجمال وحب الكمال ـ الاّ ان يفتخر بأنه من نوعه ومن بني جنسه ، ويتمنى ان يتسامى بتقليده للصورة التي يجد فيها كل انسان قوة وسكينة وأسوة وقدوة ، وحياة وتوجيها ، وجوانب مشرقة تفتح منافذ جديدة ، وتثير معاني جديدة ، وهذه الصورة لاتزال بملامحها وقسماتها الأصيلة لم تطوها يد الزمان .

الميزة الثالثة : وجود الشريعة الاسلامية كما تركها صاحب الرسالة محفوظة في أصلها وأساسها ، غنية في ثروتها الفقهية ، صلبة مرنة لاتتنازل عن القديم ولا تتجهم للجديد ، لا تخجل من ماضيها ولاتفر من حاضرها ، تالدة خالدة ، صالحة لكل عصر وبيئة ، تعطي الأسس الحكيمة التي يقوم عليها مجتمع جديد وحضارة صالحة .

الميزة الرابعة : وجود العاطفة الدينية القوية في المسلمين على علاتهم ومواضع الضعف فيهم وانقيادهم

للدعوة الدينية وخضوعهم لها اذا وجد الدعاة المخلصون ، وهذه قوة فقدها وأفلس فيها عامة الأمم الغربية ، وهى قوة لايعرف قيمتها الاّ من اشتغل بالدعوة والتجديد الديني في أمة من الأمم ، ومن رأى اخفاق هؤلاء الدعاة في اعادة الحياة الدينية والروح الدينية في هذه الأمم[1] .

(١) حديث مع الغرب ، ص / ٥٧ ـ ٦٣ .

جوانب الاستفادة والاقتباس
من الغرب ومنهجه

ليس المقصود من ابراز ناحية خطر الحضارة الغربية واقتباسها على الشخصية الاسلامية وكيان الامة المسلمة هو تحريم الاستفادة من الحضارة الغربية في مرافق الحياة واقتباس بعض ماتوصل اليه العلم والصناعة والاختراع في الغرب من وسائل تسهيل وترفيه ، واغلاق الباب على مصراعيه ، فان ذلك لايقوله عاقل فضلا عن مطلع على روح الدين وتعاليمه ، والاسلام لم يزل واسع الأفق متفتح القلب والنظر في الاستفادة بكل مايصلح وينفع ، ولكن مفهوم الحضارة الغربية في هذا المقام هو أوسع من اقتباس الآلات والمخترعات والتجارب المفيدة في الحياة العامة ، انها تشمل الافكار والقيم والمفاهيم والمثل وصبغ الحياة كلها بالصبغة الغربية والتخطيط المدني الشامل واقتباس أساليب الحياة التي لاتتفق مع تعاليم الاسلام ومعاييره في الطهارة والنظافة والاعتدال والوقوف عند الحدود التي رسمتها الشريعة الاسلامية ، ويعسر على المسلم معها التأدب بآداب الشرع والعمل بالسنن النبوية الكثيرة ، ويبتعد بها عن الحياة الاسلامية التي عاشها الرسول ﷺ والصحابة والتابعون لهم باحسان ابتعادا كليا ، وتضفي على الأمة شخصية اجنبية لاتعرف فيها الا

بالأسماء الاسلامية أو بالأزياء التي لاتزال بعض الشعوب العربية او الاسلامية محافظة عليها ، او عندما يرتفع صوت الأذان من منائر مساجدها ، او عندما تدخل في المسجد على قلة عدد الداخلين في بعض البلاد وكثرتهم في بعضها ، فلا يربطها بالاسلام الاّ خيط رقيق من عقيدة وتقاليد دينية ، اذا انقطع هذا الخيط ـ لاسمح الله بذلك ـ انقطع كل شيء .

واعتقد انه من الميسور جدا الجمع بين التسهيلات المدنية والاستفادة بالآلات والمخترعات وما وصل اليه العلم الحديث ، وبين ماتمتاز به الحضارة الاسلامية من جمال وبساطة وجدية وعناية بالطهارة والنظافة والابتعاد عن الاسراف والتبذير والاغراق في المظاهر الخارجية ، اذا وفقت الحكومات الاسلامية والمجتمعات الاسلامية للتخطيط المدني المستقل ، البعيد عن التقليد الأعمى والارتجالية ومركب النقص ، واذا توافر عندها الذكاء والاصالة والايمان بفضل التعاليم الاسلامية والحضارة الاسلامية التي تنبثق عنها وتقوم عليها ، والاعتداد بشخصيتها ، وكان هذا التخطيط اجمل وافضل وأكثر جليا للأنظار واستهواءا للقلوب ، وأبعث على الاحترام والتقدير ، ويؤم هذه المدن عدد من السياح بل من قادة الفكر ورواد العلم ، وأكبر من العدد الذي يؤمها الآن من المتنزهين ، وربما يكون هذا الطراز الجميل الاصيل من

المدنية باعثا لكثير من الأقطار الغربية على تقليد بعض هذه الجوانب واقتباسها ، وعلى الاقل على التفكير فيها وتقديرها ، كما كان الشأن مع الحضارة الاسلامية الأندلسية التي كان لها تأثير عميق في الحضارة الغربية وفلسفتها وآدابها .

ولكن مع الاسف الشديد لم يوفق لذلك قطر واحد من الاقطار الشرقية والغربية العربية والحكومات الاسلامية ، ولم تكن عند أحدها جرأة كافية تحملها على مجرد هذه التجربة ، وكانت النتيجة ان اصبحت هذه الاقطار كلها نسخة ناقصة من المدنية الغربية وصورة شاحبة لها ، لا تسترعي اهتمام الغربيين ولا تحرّك فيهم مشاعر الاجلال والاحترام ، وانما يقولون اذا زاروا هذه المدن متفرجين او مشاهدين : (بضاعتنا ردت الينا) .

محنة ذكاء وقوة إرادة :

ان التصميم الحضاري محنة ذكاء ، وعصامية وعبقرية ، وقوة ارادة ، وفقه دين ، ليس مجرد عملية نقل وتطبيق ، وتعديل وتحسين ، ان الاسلام قد حدّ حدود الحلال والحرام ، وحرم تخطي هذه الحدود ، وأفسح المجال بينها للتمتع الكريم النزيه ، في غير اسراف واجحاف ومس بحقوق الآخرين وحظوظهم ، ومن غير تعرض لخطر الوقوع في الاثم والفحشاء والتبذير ، والحياة

التي لاتليق بالذكور الرجال ، والكرام الأقوياء ، وهذه هى الروح التي تسيطر على احكام اللباس والطعام والعشرة والاجتماع والمتعة واللذة ، وحث على مراعاة المصالح والتجنب من المضار والمفاسد ، واعداد الممكن المستطاع ، من وسائل القوة والدفاع واقتباس الصالح والنافع من العلوم والحكمة ، بشرط ان لايكون ذلك على حساب مقومات الشخصية والكرامة والقومية ـ الاسلامية ـ وبشرط ألّا ينشيء ذلك في الأمة شعورا بالنقص ، وقصورا في الثقة ، وروح اندفاع سريع متهور الى تقليد الآخرين ، والتشبع بروحهم ، واجلال حياتهم وتقديسها .

نعومة حرير وصلابة حديد :

انها أساس حضارة تملك نعومة الحرير وصلابة الحديد ، نعومة الحرير في مسايرة المقتضيات والحاجات والحقائق ، غير مفترضة ولا مختلفة ، وغير متخيلة ولا مبالغ فيها وصلابة الحديد ، وثبات الجبال على حدود العقيدة والأخلاق ، انها مفتوحة العقل والضمير ، منشرحة الصدر ، لاقتباس العلوم النافعة التي نشأت وتكونت في جانب بعيد في هذا العالم ، واقتباس النظم والأساليب التي لاتمس جوهر الدين ولا تغير وضع الأخلاق .

الاستفادة من الغرب ومجالها :

وأحلى هذا الفصل الذي يحدد موقف العالم الاسلامي من حضارة الغرب وثقافته بقطعة جميلة من كتاب : «الطريق الى مكة» للأستاذ محمد اسد فقد بدأ فيها الاتزان والحضارة الفكرية ، وهى تحدد ـ بلباقة فائقة ومقدرة كبيرة ـ الخط العادل المتزن الذي يجب ان يسير عليه العالم الاسلامي في الافادة من الغرب وتبني الوسائل الحديثة ، يقول محمد اسد :

«ان عالم الاسلام والغرب لم يكونا يوما اقرب احدهما من الآخر» ، كما هو اليوم ، وهذا القرب هو صراع ظاهر وخفي ، ذلك ان ارواح الكثير من المسلمين والمسلمات للتغضن رويدا رويدا تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية انهم يتركون انفسهم ، يبتعدون عن اعتقادهم السابق بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب ان لايكون سوى واسطة لتحسين احاسيس الانسان الروحية ، وانهم يسقطون في وثنية «التقدم» نفسها التي ترد من فيها العالم الغربي بعد ان صغروا الدين الى مجرد صلصلة رخيمة في مكان ما من مؤخرة الأحداث ، ولذلك تراهم يصغرون مقاما ولايكبرون ، ذلك ان كل تقليد ثقافي بخلاف الخلق والابداع لابد ان يحقر الامة ويقلل من شأنها .

انا لاأعني أن المسلمين لايستطيعون ان يفيدوا كثيرا من الغرب ، وبخاصة في مجال العلوم والفنون الصناعية ، ذلك ان اكتساب الافكار والاساليب العلمية ليس في الحق «تقليدا» وبالتأكيد ليس في حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن ان يوجد ، ان العلم لا غربي ولا شرقي ، ذلك ان الاكتشافات العلمية ليست الاّ حلقات في سلسلة لا نهاية لها من الجهد العقلي الذي يضم الجنس البشري بكامله ، ان كل عالم يبني على الاسس التي يقدمها له اسلافه سواء كانوا من بني أمته أو من أبناء أمة غيرها ، وعملية البناء والاصلاح والتحسين هذه تستمر وتستمر ، من انسان الى انسان ، ومن عصر الى عصر ، ومن مدنية الى مدنية بحيث ان مايحققه عصر معين او مدنية معينة من اعمال علمية جليلة لايمكن مطلقا ان يقال انها «تخص» و «تعود الى» ذلك العصر او الى تلك المدنية فقد يحدث في مختلف الأزمنة والعهود ان تسهم امة ما ، امضى عزيمة وأشد همة من غيرها ، بنصيب اكبر في صندوق المعرفة ، ولكن الجميع مع الزمن يشتركون وبصورة شرعية صحيحة في هذه العملية ، لقد جاء حين كانت مدنية المسلمين اقوى وأمضى من مدنية أوروبا ، فنقلت الى أوروبا كثيرا من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية ، وأكثر من هذا مباديء «تلك الطريقة العملية» نفسها التي يرتكز عليها العلم الحديث ،

والمدنية الحديثة ، ومع ذلك فان اكتشافات جابر بن حيان الكيماوية لم تجعل من الكيمياء علما «عربيا» كذلك لايمكن ان يقال ان الجبر وعلم المثلثات هما علمان «اسلاميان» مع ان الأول منهما بسطه الخوارزمي ، والثاني البتّاني ، وكلاهما كانا مسلمين تماما ، كلا لايستطيع احد، ان يتكلم عن نظرية الجاذبية «انجليزية» مع ان صاحبها كان انجليزيا ، كل هذه الاعمال العلمية العظيمة هى ملك مشترك بين الجنس البشري كله ، واذن فان المسلمين اذا تبنوا كما هو من واجبهم ان يفعلوا ، الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية ، فانهم لايفعلون اكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم ، ولكنهم اذا تبنوا ـ وهم غير حاجة الى ان يفعلوا ذلك ـ اشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فانهم لن يفيدوا من ذلك شيئا ، ذلك ان مايستطيع الغرب ان يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون افضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها ومما يدلهم عليه دينهم نفسه .

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها ، اذن لما استطاعوا ان يحتفظوا بحريتهم الباطنية فحسب ، بل ربما استطاعوا

ايضا ان يعطوا انسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع[1] .

الفراغ الأكبر والعبقري المطلوب :

ان الفراغ الاكبر في العالم الاسلامي هو الحاجة الى ذلك العبقري العصامي الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وايمان وذكاء ، ويشق له طريقا بين مناهجها ومذاهبها ، وبين فضائلها ورذائلها ، طريقا يترفع فيها عن التقليد والمحاكاة وعن التطرف والمغالاة ، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر ، والمفاهيم السطحية ، متسمكا بالحقائق وأسباب القوة وباللباب دون القشور .

العبقري العصامي الذي يشق له ولبلاده وأمته طريقا مبتكرا ، ويجمع فيها بين الايمان الذي اختص به الانبياء والرسل ، والدين الذي أكرمه الله وأمته به عن طريق محمد ﷺ وبين العلم الذي ليس ملك أمة ولا بلد ولا عصر ، يأخذ من الدين الدوافع الخيرة التي هى اعظم قوة وأغنى ثروة في خدمة الانسانية وبناء صرح المدنية ، والغايات الرشيدة الصالحة التي لايوحيها الا الدين السماوي والتربية الدينية السليمة ، ويأخذ من الحضارة

---

(١) الطريق الى مكة ، للأستاذ محمد أسد (ليوبولد) سابقا ، ص / ٣٧٤ ـ ٣٧٦ .

الغربية الآلات والوسائل القوية الكثيرة التي أنتجتها وتوصلت اليها في سيرها العلمي الطويل وفي جهادها المتواصل الشاق ، ولم ينتفع بها الغرب لافلاسه في هذا الايمان وفقره في هذه الدوافع الخيرة ، وفي هذه الغايات الصالحة ، بل اصبحت تستخدم في شقاء الانسانية وتقويض أركان المدنية والغايات تافهة لا قيمة لها .

العبقري العصامي الذي يعامل الحضارة الغربية - بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها - كمواد خام ، يصوغ منها حضارة قوية عصرية مؤسسة على الايمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل في جانب ، وعلى القوى والانتاج والرفاهية وحب الابتكار في جانب آخر ، ولا يعامل الحضارة الغربية كشيء قد تم تكوينه وتركيبه وختم عليه فلا يؤخذ الا برمته ولا يقبل الا على علاته ، انما يأخذها كأجزاء ، يختار منها مايشاء ، ويركب منها جهازا يخضع لغاياته وعقيدته ومبادئه ونظام خلقه ومايكفله به دينه من منهج خاص للحياة ، ونظرة خاصة الى الدنيا ، وسلوك خاص لبني النوع ، وسعي خاص للآخرة ، وجهاد دائم ﴿ **حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ جهازا مؤسسا على الايمان بنبوة محمد ﷺ وأنه المثل الكامل ، والامام الدائم والقائد المطاع ، والنموذج المتبع والسيد المحبوب ، والخضوع لشريعته كدستور للحياة ، وأساس للتقنين ، والدين الوحيد الذي تنال به

سعادة الدنيا والآخرة ولا يقبل الله سواه .

العبقري العصامي الذي يأخذ من علوم الغرب ماتفتقر اليه أمته وبلاده ، وماينفع عمليا وماليس له طابع غرب او شرق ، انما هى علوم تجريبية تطبيقية ، وينفض عن كل ما يأخذه من الغرب غبارا لصق به في القرون المظلمة وفي عصر الثورة على الدين ، وفي حالة توتر أعصاب وقلق نفوس ، يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الالحاد والعداء للدين ومن النتائج الخاطئة ويطعمها بالايمان بفاطر الكون ومدبره ، ويستنتج منها نتائج اعظم وأوسع وأعمق وأكثر سعادة للانسانية مما توصل اليه أساتذتها الغربيون[١] .

---

(١) الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص / ٢١٢ ـ ٢١٦ .

مخطط عملي للانتفاضة الاسلامية

النقاط التالية يجب التركيز عليها في الانتفاضة الاسلامية الجديدة ، وصيانة المجتمع الاسلامي من الجاهلية التي يتطلبها القرن الخامس عشر الهجري في ضوء الواقع وتجارب الماضي .

١ ـ تحريك الايمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة واثارة الشعور الديني فيها ، فان تمسك هذه الشعوب والجماهير بالاسلام وتحمسها له ، هو السور القوي العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثير من القيادات وحكومات العالم الاسلامي في حظيرة الاسلام ، وهى مادة الاسلام ورأس ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأي غاية نبيلة ، وهى من أقوى المجموعات البشرية وأحسنها سلامة صدر وقوة عاطفة ، واخلاص .

وذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التي تستحق بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلب على المشكلات ، والانتصار على العدو ، واخلاص الدين لله ، والابتعاد عن كل انواع الشرك والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الاسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد والحياة والقول والعمل وسير الأمم القديمة التي استحقت بها عذاب الله وخذلانه

وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم الى النار والدمار .

هذا مع تنمية الوعي الصحيح وتربيته والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لاتتكرر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسة للهتافات الجاهلية ، والنعرات القومية ، او العصبيات اللغوية ، والثقافية ، ولعبة القيادات الداهية والمؤامرات الاجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الديني والعقل الايماني .

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الاسلامية من التحريف واخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية والتجنب عن تفسير الاسلام تفسيرا سياسيا بحتا ، والمغالاة في «تنظير الاسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الانسانية ، لأن هذه الحقائق الدينية ، هى أساس الاسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية واليه النهاية ، واليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصحف السماوية .

والحذر من كل مايقلل من قيمة الصلة بين الله والعبد والايمان بالآخرة وأهميتها ويضعف في المسلم عاطفة امتثال امر الله وطلب رضاه ، والايمان والاحتساب ، والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحول يفقد هذه الأمة

شخصيتها وقوتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كل مايقلل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشرك الجلي ، والعادات والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات غير الاسلامية ، فان ذلك يتجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوي الى المنهج الجديد السياسي .

٣ ـ تقوية الصلة الروحية والعاطفية بالنبي ﷺ ، والحب العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل ، والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والايمان به كخاتم الرسل ، وامام الكل ، ومنير السبل ، والحذر من كل العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحب ، واضعافه على الاقل وتحدث جفافا في الشعور ، وضعفا في العمل بالسنة ، وتجرؤا في القول ، وانصرافا عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته ، وكل مايحرك هذا الحب ويغذيه ولعل البلاد العربية (بفعل احداث ، ودعوات قومية) أحوج الى العناية بهذه النقطة ، وأحق بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمدية ، وفي لغتها نزل القرآن ، ونطق الرسول .

٤ ـ اعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ، ومن بيدهم القيادة الفكرية والتربوية والاعلامية ، في البلاد والحكومات الاسلامية بصلاحية الاسلام وقدرته لا على مسايرة العصر وتطوراته وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشري الى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة

الى بر السلام والسعادة ، وانقاذ المجتمع البشري من الانهيار والانتحار ، الذي تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنه ليس «بطارية» قد نفدت شحنتها او ذبالة قد نفد زيتها ، واحترقت فتيلتها بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النجاة التي هى كسفينة نوح ، لاينجو الاّ من ركبها .

إن ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داء هذه الطبقة المثقفة الناشئة في احضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسئول عن كل تصرفاتها وسبب الردة الفكرية ، والحضارية ، والتشريعية التي تكتسح العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وتعاني منه الشعوب المسلمة ـ التي لاتفهم إلاّ لغة الايمان والقرآن ، ولا تتحمس إلاّ للاسلام ـ وسبب حدوث هذا الخليج العميق ، الواسع بين القيادات والحكومات ، والشعوب والجماهير ، وسبب القلق الذي يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات في مالا يعود على الأمة والبلاد بفائدة .

٥ ـ قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب المنتشر السائد في العالم الاسلامي ، رأسا على عقب ، وصوغه صوغا اسلاميا جديدا ، يتفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، ويبعد هذا الصوغ عنه عناصر الالحاد أو

المادية ، وتصور هذا الكون تصورا ماديا ، والعلوم وحدات متناثرة متناقضة ، والطبيعة حرة قاهرة ، والتاريخ حوادث غير مرتبطة خاضعة لقلق وصرع دائمين ، وهكذا ، ولا يصلحه إصلاحا جزئيا ، فحسب بل يبتكر ابتكارا جذريا ، مهما استفاد من الطاقات ، وكلف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير ذلك لايقوم العالم الاسلامي على قدميه ، وبرأسه ، وعقله وارادته ، وتفكيره ، ولا تدار الحكومات ، والأجهزة الادارية ، والمرافق العامة إلا برجال مؤمنين اقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الاسلامية في الحكومة والادارة ، والتربية والاعلام ، والمجتمع ، فتمثل الحياة الاسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الاسلامي بسماته وخصائصه .

٦ ـ حركة علمية قوية دولية ، تعرف الطبقة المثقفة الجديدة ، بذخائر الاسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الاسلامية روحا من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن ، ان الفقه الاسلامي وقانونه من ارقى القوانين ، وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساس من المباديء الخالدة التي لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها في يوم من الايام ، وهى تصلح لمسايرة الحياة الانسانية في كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته ايدي الناس .

٧ ـ الحضارة عميقة الجذور في اعماق النفس

الانسانية وفي مشاعر الامة وأحاسيسها وتجريد أمة عن حضارتها الخاصة التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها وكان في صياغتها نصيب كبير للذوق الديني الخاص وطابع هذه الأمة الخاص ـ مرادف لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في اطار العقيدة والعبادة ، والطقوس الدينية الضيقة ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلا بد للحكومات الاسلامية والمجتمعات الاسلامية من التخطيط المدني الاسلامي المستقل البعيد عن تقليد الغرب الأعمى والارتجالية ومركب النقص ، ولابد من تمثيل الحضارة الاسلامية في عواصمها ، وفي دوائرها ، وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ومتنزهاتها ، والى حد في مكاتبها وطائراتها وسفاراتها ، وبذلك لايعرض العالم الاسلامي نموذجا للحياة الاسلامية المثل الاسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوة صامتة للاسلام .

٨ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر وولاة الأمور في العالم الاسلامي حضارة قوية عصرية مؤسسة على الايمان والأخلاق والتقوى ، والرحمة والعدل في جانب آخر ، وعلى القوة والانتاج والرفاهية وحب الابتكار في جانب آخر ، يأخذون من علوم الغرب ماتفتقر اليه امتهم وبلادهم ، وماينفع عمليا وماليس عليه طابع غرب وشرق ، ويستغنون عن غيره ويعاملون

الغرب كزميل وقرين ، ان كان في حاجة الى ان يتعلموا منه كثيرا ، فهو في حاجة الى ان يتعلم منهم كثيرا ، وربما كان مايتعلمه الغرب منهم افضل مما يتعلمونه هم من الغرب .

٩ ـ اقناع الحكومات ـ في بعض البلاد الاسلامية التي مثلت دورا رائعا في تاريخ الدعوة والحضارة الاسلامية ـ المشغولة بحرب ابادة للعنصر الاسلامي او عملية «تطوير للاسلام» وتفسيره وفق مصالحها السياسية وأهواء قادتها الشخصية بأنها سياسية عميقة لم تنجح في بلد اسلامي ، واقناعها بتوجيه طاقاتها وامكاناتها الى عدو مشترك ، والى مايقوى البلاد والأمة .

واقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للاسلام بضرورة تطبيق الشريعة الاسلامية وتهيئة الجو المناسب ، المساعد على ذلك ومايستتبع هذا الامر من سعادة وبركة ونصر من الله وسعي لتكوين قيادة موحدة تقوم على مبدأ الشورى الاسلامي ، والتعاون على البر والتقوى ـ والشعور بالتقصير على الاقل ـ بعدم وجود الامانة العامة او الخلافة الاسلامية التي كلف بها المسلمون ، وسيحاسبون عليها .

١٠ ـ أما البلاد غير الاسلامية فالقيام بالدعوة الى الاسلام والتعريف به بأساليب حكيمة تتفق مع طبيعة الاسلام وروح العصر ، اما البلاد التي فيها الاقليات

المسلمة فالاهتمام بتمثيل الاسلام والحياة الاسلامية تمثيلا يلفت اليه الانظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية وقبول مسئولية انقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقي والخواء الروحي والتدهور الاجتماعي الذي تعرضت له هذه البلاد حكومة وشعبا حتى يتهيأ للاسلام ان يثبت جدارته وحاجة البلاد اليه ويتهيأ للمسلمين ان يقوموا بدورهم البلاغي والقيادي في هذه البلاد .

الحضارة الغربية آذنت بالأفول والأمة الاسلامية هى الأمة المختارة للإمامة والقيادة

ان الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار ، وآذنت بالأفول والزوال ، انها لاتعيش ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية ، وجدارتها للحياة والبقاء ، بل لأنه ليست في هذا المجال ـ من تعاسة الحظ ـ حضارة تحل محلها وتسد فراغها ، ان جميع الحضارات المعاصرة والقيادات الحديثة اليوم لاتعدو نوعين ، اما هى مقلدة جامدة وصورة باهتة للحضارة الغربية ، واما هى ضعيفة هزيلة ، مريضة سقيمة ، منسحبة منهزمة ، لا تستطيع ان تواجه هذه الحضارة او تقف معها جنبا الى جنب ، فاذا قامت هذه الدول الاسلامية ، والعالم الاسلامي بصورة عامة لسد هذا الفراغ الذي سيحدث بعد نهاية هذه الحضارة وانسحابها عن مسرح القيادة ردّ اليه منصب قيادة الجنس البشري ، وتوجيه الشعوب المعاصرة مرة ثانية ، المنصب الذي لايفوض الاّ الى أمة فتية قوية أبية تحمل كل عناصر البقاء والاستمرار والتقدم والازدهار : سنة الله في الأرض ، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ .

فلينظر هؤلاء القادة والحكام ماهو أولى لهم وأجدر بشأنهم ، التمسك بأذيال الغرب والوقوف على بابه

كالشحاذين ، أم منصب قيادة الانسانية وهداية الشعوب الضالة التي لا كرامة ـ بعد النبوة ـ مثل هذه الكرامة ؟ ، ذلك المنصب العالي السامي الذي تتلاشى عنده جميع هذه الالقاب والشارات والشعارات ، والهتافات والمناصب الرفيعة ، والحياة الناعمة المريعة ، والاغراءات المادية والجنسية ، انها سلعة غالية لا يخسر بها المشتري ، ولو ضحى بنفسه مائة مرة .

فهل هنا ـ في ساحة العالم الاسلامي الكبير ـ بلد اسلامي يقوم لهذا العمل الضخم ، العمل الحاسم الفاصل الذي لايساويه عمل في هذا العهد الحديث في الاتساع والعمق ، والشمول ، وفي النتائج والآثار ، والثمرات والخيرات وفي تغيير التيارات وتقويم الاتجاهات ، واصلاح الحضارات والمدنيات ، العمل الذي لاتجدر امامه نهضة الغرب ، وثورة فرنسا ، والشيوعية ، والماركسية بالذكر فضلا عن الاشادة والتنويه ، ان هذه الثورات القديمة تبدو كعبث الأولاد او طفرة من طفرات الشباب بالنسبة الى جراءة هذا العمل وذكائه وسحره وتأثيره ، ان هذه التجربة تعطي هذه الدول التي تقوم بها ، والعالم الانساني كله مجالا بكرا جديدا فسيحا للتفكير والعمل ، وطريقا مأمونا مستقيما الى السلامة والأمن ، هذا العمل لاتستحقه ولا تجدر به ، ولا تنجح فيه الاّ الشعوب التي عاشت في حوزة الملة

الابـراهيميـة ، واعتـزت ببشـارة تكميـل الـدين وختم النبوة[1] ، إن رسالة السماء تهتف بهؤلاء القادة والزعماء قائلة مجلجلة :

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير﴾

(١) الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية .

دار المجتمع للنشر والتوزيع

تهتم

- بنشر الرسائل الجامعية وكتب التراث والمراجع الثقافية والإسلامية
- تيسير الحصول على الكتب والمجلات الثقافية والإسلامية والمتخصصة والجامعية
- كما توزع جميع كتب ومراجع دور النشر في العالم العربي والإسلامي

خصم خاص لمعارض دور العلم (الجامعات والمدارس) ولكميات الجملة لجميع المكتبات

جدة : ميدان الجامعة ـ ص.ب ٨٠٥٢ جدة ٢١٤٨٢
تليفون الإدارة : ٦٨٩١٤١٧
تليفون المكتبة : ٦٨٩٤٤٦١
فرع الخبر: شارع الأمير نايف/تقاطع ١٦ ـ ص.ب ٢٢٢١٠ الخبر ٣١٩٥٢ ت ٨٩٤١١٣٦

للأشرطة الإسلامية

تقدم مكتبة صوتية كاملة

○ قرآن كريم ○ محاضرات
● ندوات ● خطب
■ أناشيد إسلامية

العنوان: شارع الأمير نايف - تقاطع ١٦ - ص.ب ٢٣٢١ - الخبر ٣١٩٥٢
تلفون ٨٩٨٦٥٤٤

موافقة وزارة الاعلام رقم ٢٢٣٣ /م/ج
وتاريخ ١٤٠٦/١١/١٤ هـ .

مطابع دار البلاد ـ جدة
ت ٦٧٠٠٣٣٣